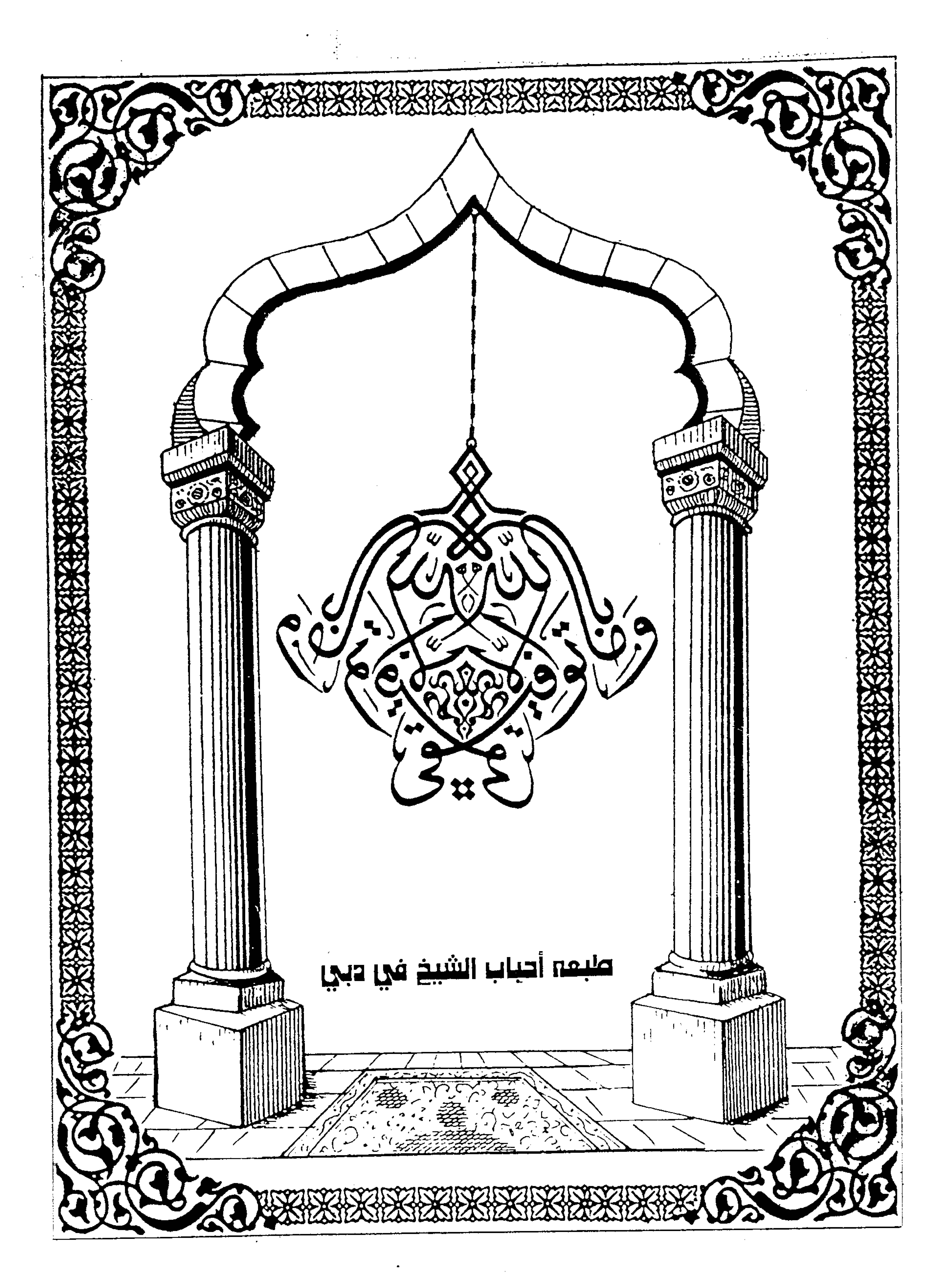

آلاء الرحمن
على
العارف النبهان
ويليه
(الذكر . فضائله . أنواره . آثاره)
تأليف
العارف بالله / الشيخ محمد أديب حسون
أبو الفتح
abo3bdou@gmail.com


طبعه أحباب الشيخ في دبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الباقي بعد كل شيء «الذي يرث الأرض ومن عليها، وأشهد أن لا إله إلا الله المنعم المتفضل بالنعم الحسية على جميع خلقه وبالنعم الحسية والمعنوية على سادات مخلوقاته الذين اختارهم بعلمه، وفضلهم بحكمته. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» (١).

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي تمم الله تعالى به بناء النبوة والرسالة، وجمّل به العلم والولاية، وأظهر به الإيمان والإسلام فكان من اتبعه سالكاً طريق السلامة.

ورضي الله عن آله وأصحابه الأنجم الزاهرات وأتباعه أهل النفوس الخيرات والأرواح الزاكيات، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فالله نسأل وهو نعم المولى ونعم المأمول أن يرزقنا حسن النوايا والأعمال حتى نكون في جميعها على أعلى مستوى يحبه الله ويرضاه.

---

(١) الملك / ١٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الرافع لشأن أوليائه، المبشر لهم بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الكفيل لهم برعايته، المتولي لهم بعنايته، فهم في كنفه يتقلبون، وبمعرفته يتنعمون.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين.

فمرجع الكل إليه، وهو سيد كل طبقة من هؤلاء، منه يستمدون، وإليه في الشفاعة يوم القيامة يرجعون وبعد:

فكل زمان ساداته هم المنتسبون إلى الله وهم أولياؤه وأحبابه «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون». اتقوا المعاصي في بدايتهم والمخالفات، ثم اتقوا المكروهات، ثم رقوا في درج الكمالات، فاتقوا الانشغال بغير محبوبهم، فأقبلوا على ربهم بكنه القلوب فشغلوا به عمن سواه. وهاموا شوقاً بحبه فأدخلهم في كنف حمايته ورعايته، فعاشوا بالله وفي الله قريرة أعينهم، صافية قلوبهم عن المكدرات الفانية.

وكان من هؤلاء في عصرنا شيخنا الشيخ محمد النبهان طيب الله ثراه، فلقد عشت معه قرابة ثلاثين سنة، فلله آثارها، ولله أنوارها ما أبركها وما أطيبها، لكن قضى الله أن يكون لكل موجود في هذه الحياة نهاية.

فالرسل عليهم الصلاة والسلام جاؤوا للعالم برسالتهم، وبلغوها

لقـومـهم، ثم كروا لربهم راجعين لينالوا نتائج ما قدموا، وهكذا الأولياء والعلماء والمؤمنون.

ولقـد فـقـدنا جـسم شيخنا ومربينا طيب الله ثراه بعد أن أدى رسالته ونصح أمتـه، ودعاهم إلى الله تعالى بعلمه وعمله، نعم غاب عن أعيننا ذلك القـمـر المنير وذلك مـسـاء السـادس من شـعبان سنة ١٣٩٤هـ سنة ١٩٧٤م على أثر مـرض ألم به مـدة سنتين تقريباً، ولكنه لم يلزمه الفراش إلا قليـلاً في آخـر عمره الشريف ولكن لن تغيب إرشاداته وتعاليمه فهي باقية إن شاء الله إلى أبعد مدى يريده الله تعالى.

وكما قال سيدنا علي رضي الله عنه عن العلماء الربانيين:

(أجـسـامهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة)، وكيف يغيب مثال الرباني المشرق كـشيـخنا قـدس الله روحه، وقد سما بأخلاقه بين الناس سمو الشمس المشرقة وعلا بأفهامه ومعارفه علو القمر المنير.

فرحمه الله ورضي عنه وجعلنا معه مع أحبابه ـ أمين.

محمـد أديب حسـون

سورية ـ حلب

١ ـ تمهيد

في سنة ١٣٤٦هـ الموافق سنة ١٩٢٧م أكرمني الله تعالى بدخولي في المدرسة الشعبانية الشرعية، وكان فيها نخبة من أهل الفضل والعلم، ومن أمنّهم عليَّ الشيخ محمد الجبريني رحمه الله تعالى وكان رجلاً كامل الرجولة.

بينما كنت في أول العقد الثاني من عمري ورزقني الله محبته، وحنا عليّ حنو الوالد، فكنت أراجعه في كثير من أموري.

في صيف تلك السنة، وفي كل صيف كان شيخنا محمد أبو النصر بن الشيخ سليم خلف يرحمهما الله تعالى وأعلى عنده مقامهما ورضي عنهما. يزور حلب ليرعىٰ أتباعه في طريقته النقشبندية، فاستصحبني الشيخ محمد الجبريني الفقيه الشافعي السالك النقشبندي، استصحبني معه للسلام على الشيخ أبي النصر، وكان الشيخ رحمه الله حينما يأتي إلى حلب تهتز المدينة فرحاً به، ويؤمها الكثير من أهل القرى والأقضية للسلام عليه، وكان علماء حلب جلهم إن لم يكونوا كلهم يأتون للسلام على الشيخ، منهم الشيخ نجيب سراج الدين، والشيخ سعيد الإدلبي وغيرهم من كبار العلماء ورزق الشيخ في حلب أتباعاً كثيرين، وجعل الله على يديه الخير الكثير، سواء في تسليك الناس في الطريق أو في إرشادهم للعلم، وكم انتسب إلى العلم بسبب أمره من طلاب المدينة والأقضية والقرى.

فقد كان رحمه الله يحض أتباعه على العلم لأنه كان عالماً ومرشداً، وهذا أحسن شيء في الدعوة إلى الله.

٢ ـ تلقيني ذكر الطريق

وفي ليلة الجـمـعـة فيما أظن، كنا في بيت الحاج عبدالله لاجين في محلة الشرعـسـوس أمر شيخنا أبو النصر الشيخ عبدالرحمن المنفي فلقنني الذكر بحـضـوره، وسكنت وتوجه الشيخ إليَّ، وكنت أتمنى أن أرى من الشيخ كـرامـة، فـدخـلـت مـرة على الشيخ في الدار المذكـورة في ليلة من ليـالي الجمع، وإذا بالشـيخ يأخـذ بيـدي ويضع رجله على صدري وأنا جالس مقابله ويهزني، قال:

كلما جاء رجل يريد أن يرى كرامة.

فكانت هذه الكلمـة جـواباً لتـمنياتي، وزاد ارتباطي بالشيخ رضي الله عـنـه ولقـد كـان تأثير الشـيخ أبي النصر قـدس الله روحـه على تلامـذته بـالنظر، فكان المنشـدون يفـردون بالإنشـاد، وكـان هو يدور بعـينه على المريدين فينهض هممهم بهذه النظرات المباركة.

وقد جاء في الشمائل المحمدية:

(أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تربيته لأصحابه بالنظر).

يعني: فـيما لا يحتاج إلى الكلام، كتعليم الأوامر والنواهي، فهذه لابد لها من الكلام والأحاديث طافحة بذلك.

٣ ـ الرؤيا التي سببت اللقاء مع شيخنا النبهان

كان شيخنا أبو النصر قد أقام شيخنا الشيخ محمد النبهان مديراً للختم في جامع باب الأحمر شرقي القلعة، وكان هذا الختم ليس له نظير من عدة وجوه:

أولاً : كان مديره شيخنا النبهان قدس الله روحه إذ ذاك في أوج سلوكه وقوة إرادته وصدقه، فكان أثر الذكر والخشوع يظهر عليه من جميع جوانبه.

ثانياً : كان يحضره غالب أهل العلم البارزين من مريدي شيخنا أبي النصر مثل: الشيخ أحمد المصري، والشيخ محمد الجبريني والشيخ حسن الحاضري، والشيخ ناجي أبو صالح وغيرهم من العلماء ـ رحم الله من توفي منهم وأمد ونفع في عمر الباقين. فكنت ترى حلقة الختم قد زانها العلم، وكملها الطريق، وكان كل من حضر هذا الختم يؤخذ بلبه لما يرى فيه من النور والبكاء والخشوع، وكنا طلاباً في المدرسة الخسروية نأتي بعد صلاة العشاء لنحضر هذا الختم المنوّر.

حضرت ليلة ـ وكنا مواظبين على الورد (١) فأخذ المجلس من قلوبنا كل مأخذ، وخرجت من الختم وذهبت إلى مدرسة القرناصية فلم أقدر على المطالعة لقوة الوارد (٢) فاضطجعت وإذا بي أرى شيخنا أبا النصر في الرؤيا وهو مستلق على قفاه في إحدى الغرف، ودخلت عليه وإذا به يفتح ذراعه مشيراً إليّ للاضطجاع بجانبه، فاضطجعت. لما استيقظت وجدت نقشاً على ذراعي كهيئة الشجرة الجميلة، ونسيت الرؤيا، فكنت أتوضأ والنقش باقٍ على ذراعي مدة ثلاثة أيام، وعندما ذهبت إلى

لدرسة نبهني بعض رفاقي على أثر نقش آخر في عنقي، وهنا تذكرت رؤيا، فلما فرغت من الفحص ذهبت بصحبة الشيخ محمد الغشيم بارك له فيه إلى سيدي الشيخ محمد النبهان إلى الكلتاوية، فقصصت عليه رؤيا، ومن ذلك اليوم بدأ ارتباطي بالشيخ بالحب.

وبما أن شيخنا أبا النصر كان موجوداً، فكنا لا نتردد على شيخنا نبهان كثيراً إلى أن جاء الوقت بالتردد الكثير. والانتساب إليه كشيخ عد شيخنا.

- من آثار شيخنا أبي النصر رحمه الله ورضي عنه

لقد من الله تعالى على شيخنا أبي النصر رحمه الله ورضي عنه بالقبول الفتح الكثير في حلب وأقضيتها وفي الجزيرة.

فمن حلب إلى حدود العراق تقريباً كان الشيخ أبو النصر هو الشيخ لمتبوع صاحب الصيت المدوي في الطريقة النقشبندية، وكم تبعه رجال نساء وكانت حالتهم قبل اتباعهم للشيخ كأهل الجاهلية، وإذا بهم بعد تباعهم لشيخنا أبي النصر وكأنهم قد أسلموا من جديد، وسرى التدين الذكر في نفوسهم وحييت بذكر الله قلوبهم.

وكانوا يرون على الشيخ آثار الخير، وتظهر لديهم بركات وكرامات أذكر قصة واحدة حدثني بها ولده أخي وشيخي الشيخ عبد الباسط حفظه الله قال.

كان المندوب الفرنسي يضيق ذرعاً بالشيخ وأتباعه لما يرى من الحب له التمسك بالدين بسببه والتفاف الناس حوله، فاتفق مع بعض صنائعه من غضب الله عليهم أن يغرقوا الشيخ وأتباعه في الفرات بحيلة، وأراد

الشيخ أن يعبر الفرات إلى الجزيرة من بلدة جرابلس.

فركب سفينة المجادف ومعه كثير من إخوانه حتى وصل إلى نصف النهر ادعى من يقود السفينة أنها تعطلت ولا يمكنه سوقها فعليكم أن تنجوا بأنفسكم بالسباحة، وهيهات ذلك مع زيادة النهر وهيجانه وإذا بالشيخ ينادي والده سيدنا الشيخ سليم خلف قدس الله سره: بابا - بابا، ولجأ إلى الله تعالى، وإذا بالسفينة تمشي بنفسها على الماء، يسوقها الماء من غير مجاديف حتى وصلت إلى الشط وبشكل معارض للتيار وجريان الماء وكان المندوب الفرنسي ينظر من مكانٍ في جرابلس كيف سيغرق الشيخ وجماعته، وحينما علم بذلك جاء إلَى الشيخ يسترضيه، ويستعطفه، وعرض عليه المال فأباه الشيخ بشدة وأعرض عنه.

رحم الله شيخنا أبا النصر ورضي الله عنه، فلقد ترك أثراً في الطريقة جيداً، وله كرامات كثيرة لها مكانها وإنما الذي يهم أثره الظاهر في العلم والطريق والأخلاق، وهذا واضح لمن أراد التعرف عليه، لا يخفى على من عرف الشيخ وعاصره.

فلقد كان رضي الله عنه بسّام الوجه وضيئه، له نظرات تنفذ في القلوب فتخرجها من غفلاتها، كنا نجلس بين يديه وعيناه الكريمتان تتقلبان علينا، وتنفذ آثارهما في الأفئدة، وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه باللحظ، كان مجلسه يغلب فيه الإنشاد، إنشاد مليء بإرشاد، فكأن المنشدين يعبرون عما في قلبه من رفع الهمة والصدق في طلب معرفة الله تعالى، وفيه حث على الذكر النفيس الذي يجعل القلب في حضور دائم.

جزى الله عنا شيخنا أبا النصر خير الجزاء، وجمعنا معه ومع مريده

الأول الأكبر الأصدق سيدي الشيخ محمد النبهان في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وبارك في نجله حبيب الجميع الشيخ عبد الباسط حفظه الله ـ آمين.

ـ ختم شيخنا أبي النصر رضي الله عنه

ولقد كان الختم المدهش حقاً المليء بالأنوار الذي لا يزال خياله وأثره في قلب كل من كان يحضره، ذلك الختم الذي يديره شيخنا أبو النصر ويكون حاضراً فيه شيخنا الشيخ محمد النبهان ورفاق من أهل العلم، ومن المريدين الذاكرين.

فكنت ترى شيخنا أبا النصر في صدر الحلقة وبجانبه شيخنا الشيخ عيسى البيانوني رحمه الله وأعلى قدره، ومن الجانب الثاني شيخنا النبهان، وهكذا وجوه كالأقمار، وفي مراقبة الختم يدور شيخنا أبو النصر فيتوجه على المريدين فيضع جبهته على جبهة كل واحد منهم، وإذا بالقلوب تضطرب من قوة الذكر فيها وترتفع الأصوات بالبكاء.. وكأني بصوت شيخنا النبهان حينما يبكي تتجاوب مع بكائه ومع البكائين جميعاً جدران المسجد.

وصدق الله تعالى: «يا جبال أوبي معه والطير»

هذا وإن أكبر أثر لشيخنا أبي النصر هو:

شيخنا الشيخ محمد النبهان رحمهما الله وطيب ثراهما وقدس أسرارهما.

وسنعرض ترجمته فيما يلي

٥ ـ نشـأة شـيخنا النبهـان

كـان والده الحـاج أحمد النبـهـان رحمه الله تعالى من قرية الدويرينة من ضـواحي حلب ثم اسـتوطن حلب وسكن في محلة باب النيرب، وتزوج بوالدة شيخنا من المحلة نفسها، فأنجبت له أولاداً كراماً.

الحـاج علي وجميل، وعـبـد المجيـد، وحـسن، وكـان شيخنا عقدهم وأكبرهم سناً وقدراً وعلماً وهمة.

ولـد رضي الـلـه عـنه سنة ١٣٢٠هـ الموافق سنة ١٩٠٢م في حي باب النيرب من بلدة حلب، ونشأ في بيئة فـيـهـا كـرم ورجولة وفيها فتن بين الطوائف ولكن الله تعالى ألقى في قلبه منذ صغره محبة الدين وأهله.

قـال لنا رحمه الله ورضي عنه: كنت إذا رأيت رجـلاً مـتـعـمماً بعـمـة خضراء أعتقد أنه ولي من أولياء الله، ولا أزال أنظر إليه حتى يغيب عن بصري.

وكـان ـ نور الله مـرقـده ـ من صـغره مولعاً بالصلاة في المسجد فكان يفتح المسجد بيده ويغلقه كذلك ليحافظ على الصلوات في أوقاتها.

ورغم أن شـيـخنا ـ قـدس الله روحه ـ كان أبوه غنياً، وكان هو أكبر إخـوته وفي يده المال، وقـد أوتي فـوق ذلك صـورة حسنة جذابة، وكان محبـوباً لكل من يخالطه، كل ذلك لم يكن ليـوقـعـه في حمأة الرذيلة ـ التي كان كثير من رفاقه وذويه قد واقعوها حفظاً منه تعالى وتأهيلاً لما سيمنحه ربه من فضله وكرمه، وليجعله من آئمة الهدى والخير.

وقـديماً قـال المـشركـون حـيـنما نزل القـرآن على النبي صلى الله عليـه وسلم: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم).

القرآن عظيم، ونزل من عند عظيم وهذا الكلام كله صحيح، ولكن الباطل. أنهم جعلوا مقياس العظمة الزعامة الدنيوية كزعامة أبي جهل، والله جعل العظيم الذي هو أهل لوحيه ونزول كلامه عليه صاحب الأخلاق الفاضلة والشخصية الممتازة وإن كان فقيراً، حيث يقول سبحانه:

«الله أعلم حيث يجعل رسالته» (١)، «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا».

أي إذا كنا لم نفوضهم في قسمة أرزاق الحياة الدنيا لجهلهم بحكمة ذلك، فكيف نفوضهم في قسمة النبوة والرسالة والولاية وهكذا اختيار الله تعالى لأوليائه فقد كان شيخنا ـ رفع الله قدره ـ مؤهلاً في باطنه ليكون من حملة أسرار الولاية ومؤهلاً في ظاهره ليكون من حملة الشريعة المطهرة ولقد كان والحمد لله كذلك. فكمل بدره، وعلا قدره وألبسه الله تعالى لباس التقوى والصلاح من صغره إلى كبره.

ـ خَلْقه وخُلُقه

جرت عادة الله سبحانه وتعالى أن يجعل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أجمل الناس وجوهاً، وأتمهم خلقاً جسمياً لأنهم محط أنظار الناس، وإذا لم تكن مواقع أنظار الناس من أجسام الأنبياء والرسل حسنة، فان الناظر إليهم لابد وأن تكون له وقفة طبيعية لا تزول إلا بعد تركيز معنوي كبير.

وكذلك وراثهم من الأولياء والعارفين رضي الله عنهم، وخصوصاً

---

(١) الأنعام / ٢٤.

الدعاة إلى الله تعالى، فأكثرهم يهبهم الله شكلاً حسناً ينم عن معنى الحسن الذي يحملونه، ليكون شكلهم الحسن درجة يرقى عليها الجاهل بهم ليصل بسببها إلى معرفتهم ومحبتهم والاقتداء بهم، وهكذا كان شيخنا ـ قدس الله روحه، فقد كان جميل قسمات الوجه بساماً، معتدل الخلقة الجسمية ربعة في الجسم، قد زانه الله تعالى بالجلال والجمال، فتراه إذا غضب ـ وما علمته غضب إلا للحق ـ ترى له عرقاً يدره الغضب له هيمنته على مجلسه وعلى جليسه مع الحب والاحترام لما يرى منه ولما يظهر عليه من الفضل والعلم، ومن المعلوم أن السالك في بدايته يظهر نوره على وجهه وعلى جميع كيانه فيكون جذاباً أكثر من أن يكون مهيباً، فإذا دخل في أطوار الرجولة والمعرفة كَمَنَ نوره في قلبه وكسي الهيبة والجلال، فمن رآه بديهة هابه، فإذا خالطه وعرف أخلاقه الكريمة المتواضعة أحبه وعشقه، وهكذا فيما علمت كان شيخنا حينما كان سالكاً عند شيخنا أبي النصر ـ قدس الله روحهما ـ فقد كان شيخنا النبهان زينة الإخوان في مجلس شيخنا أبي النصر، وكان الجميع حتى الشيخ والإخوان يلتفتون إليه لما ألبسه الله تعالى من حلل الأدب والحياء والسكينة. كما كان شيخنا أبو النصر زينة مجلسه قد أعطي جمالاً وكمالاً ووقاراً، وكأن وجهه في بياضه وحمرته وما يعلوه من نور العلم والولاية والتقوى كأنه بدر، وذلك أثر النور الإلهي على قلوب أحبابه يظهر على وجوههم والحمد لله رب العالمين.

٦ ـ دخوله في المدرسة الشرعية

حدثنا عن نفسه رضي الله عنه قال:

كنت أمني نفسي أن أكون خادماً عند سيدنا الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وأتمنى لبس ثياب الخدام عند أهل الله تعالى قال: حضرت ليلة النصف من شعبان في المسجد مع الناس لسماع الدعاء فأخذني بكاء غريب قوي، وظهر عليَّ التأثر من ذلك وبعد ليلة أو أكثر وجدت في نفسي دافعاً قوياً للدخول إلى المدرسة الشرعية.

فذهبت وانتسبت إليها فعارضني والدي بقوة لأنه كان يعتمد علي كثيراً في أعماله، واستعان والدي علي بشيخ حلب إذ ذاك وعالمها الكبير الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله، وبالفعل طلب مني الشيخ بأن أعين والدي مع طلب العلم فقلت له بالحرف الواحد: (اليد لا تحمل جبستين) يعني لا يمكن طلب العلم مع الاشتغال في الدنيا لأنه بمقدار الشغل في الدنيا يكون الانصراف عن العلم، وهكذا سار شيخنا مفرغاً نفسه للعمل، ودخل في المدرسة الخسروية الشرعية، وكانت هذه المدرسة قد فتحت مجدداً بمساعي مدير الأوقاف السيد يحيى الكيالي رحمه الله تعالى وجزاه على عمله أحسن الجزاء، وقد أنجبت هذه المدرسة خيرة طلاب العلم، بل كانت هي المدرسة الوحيدة آنذاك تقارب الأزهر، فخرجت شيخنا ورفاقه من نخبة أهل العلم كالشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ معروف الدواليبي، والشيخ ناجي أبو صالح، والشيخ عبد الوهاب سكر، والشيخ محمد سعيد المسعود، ورفاقهم، فرحم الله من توفي منهم، وحفظ الباقين.

وكـانوا هم الدفعه الأولى الممتازة، وقد تخرج منها طلاب كثير لازالوا إلى اليـوم والحـمد لله هم أهل العلم المشار إليهم ولكنها اليوم بعد تغيير برامجها من أكثر من خمس عشرة سنة فقدت خيرها الأصيل، ولم يعد فيها من العلم النافع إلا القليل، ولكن الله تعالى أخلفها مدرستين.

مدرسة دار نهضة العلوم الشرعية التي كانت بأمر وإشراف شيخنا رحمه الله كما سنشير إلى ذلك فـيما بعـد إن شاء الله، ومدرسة التعليم الشرعي التي يشرف عليـهـا أخونا في الله تعالى الشيخ عبدالله سراج الدين حفظه الله ومن معه من أعوانه آمين.

على أن شـيـخنا انـتسب إلى المدرسـة، وأكـمل دراستها، ثم ذهب إلى مصر ليـتم دراسـته، ولكنه لم يكتب له البقاء طويلاً، بل كان دون السنة وذلـك بسـبب طلب والده وإصراره على أن يكون في حلب، ولعله كـان خيراً إن شاء الله.

٧ ـ أخذه الطريقة النقشبندية

بعـد أن دخل المدرسـة الشرعية بمدة وجيزة، أخذ الطريق على شيخنا أبي النصر الحمصي قدس الله روحه.

وكـان الشـيخ أبو النصر في ذلك الوقت على جـانب عظيم من الطريق وكـثـرة الأتبـاع، وحسن الأحدوثة، كما انتسب الكثير من أهل العلم إلى الشيخ.

ومعلوم أن ذكر الطريقة النقشبندية قلبي، وأثره لمن واظب عليه قوي، والقلب إذا أشرق بالنور وتحرك بالذكر سالت العبرات من العين، وغلب الخشوع على صاحبه في الصلاة وأينما كان.

فلقد كنا نجلس بين يدى الشيخ رحمه الله ـ والذكر يهز قلوبنا هزاً عنيفاً، وهذا سبب ظهور الأحوال والصرخات عند النقشبندية في البداية أكثر من غيرهم، وكان سيدنا الجنيد البغدادي سيد الصوفية رضي الله عنه في أول سيرهٌ تكثر صيحاته، فلما قوي وملك حاله سكن، فسئل عن ذلك فقال:

«وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب»، يشير إلى أن سيره صار باطنياً وملك ظاهره، وهكذا كان سيدنا الصديق أول إسلامه حينما كان يقرأ القرآن يكثر بكاؤه حتى تتقاذف عليه النساء والأطفال، فلما قوي نوره وملك حاله سكن ظاهره، ولكن باطنه كان كما عبر عنه الإمام الجنيد رضي الله عنهم أجمعين.

ولنرجع إلى شيخنا النبهان فحينما أخذ الطريقة من شيخه، وذاق حلاوة الذكر وإذا به يتجرد من الدنيا، ويترك ماله وولده ويسير سير الزاهدين من التقلل في المطعم والملبس حتى حمل عائلته الشيء الكثير من هذا، فكان والده رحمه الله يعرض عليه أن يجعل لأولاده شيئاً خاصاً يعيشون به فيرفض.

قال لنا مرة رضي الله عنه:

(إن بدايتي نهاية غيري، فمن أول قدم علوت بهمتي إلى أعلى مطلب، فلم يكن لي مراد إلا أن أتحقق بالعبدية الكاملة والمعرفة التامة).

وبقي سنين طويلة على ذلك الحال واعتزال الناس في جامع الكلتاوية، وما أدراك ما جامع الكلتاوية، إذ ذاك.

٨ ـ جامع الكلتاوية

يقول القائل:

تجيئ بكم كل أرض تنزلون بها * كأنكم في بقاع الله أمطار

وتشتهي العين فيكم منظراً حسناً * كأنكم في عيون الناس أزهار

إي والله.. هكذا كانت محلة الكلتاوية كلها، لا ينظر إليها بالاعتبار اللائق لوجود المقبرة فيها، ووقوع مالا يليق بها، وإنما أحياها الله تعالى ببركة ذلك المسجد، وببركة من ينزل فيه، ويقع هذا المسجد على ربوة يرى أغلب المدينة من فوقها، وكان مسجداً صغيراً تحف به مقبرة مهجورة غرباً وجنوباً، وغالباً كان السفهاء يأوون إليها ليلاً وحتى في النهار، وقلّب شيخنا بصره ليرى مكاناً بعيداً عن الأنظار وعن طريق الناس ومجهولاً لأكثرهم فيجعله مكان خلوته وعبادته، وهكذا شأن من يريد الله تعالى أن يغمرهم بنعمة القرب منه والمعرفة به، ولأحباب الله أسوة حسنة بحبيب الله الأكبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما حبب إليه الخلاء. فكان يخلو بغار حراء الليالي ذوات العدد حتى فاجأه الوحي فيه.

وأسوة به حببت لأتباعه الخلوة ليتأهلوا للمعرفة الإلهية ولتصفو قلوبهم من كدورات الأكوان وتمتلىء بفيوضات الرحمن ودخل شيخنا قدس الله روحه ـ مسجد الكلتاوية، وطلب من إمامه أخينا في الله تعالى الشيخ بشير الحداد أن يسمح له بالسكن في غرفة متواضعة بجانب المسجد، وبدأ الشيخ يتعبد ويتحنث لا يأتي إليه إلا الخاصة من إخوته في الله تعالى، كالشيخ أحمد المصري، والحاج محمود حموي وأمثالهما، وبدأ إخوان

الشيخ يتهامسون عن الشيخ النبهاني وعن عبادته.

وشرع ذكر مسجد الكلتاوية يرن صداه في الآذان، وإذا بالشيخ نجيب سراج الدين يستأذن تلميذه ليزوره في مسجده أياماً وليالي.

وزاره شيخه ومربيه الشيخ أبو النصر متفقداً، ولم يتركه إلا وهو مسرور، قرير العين، منشرح الصدر من نجابة مريده.

وتمر الأيام وإذا بمسجد الكلتاوية يصبح مقصداً للصادقين ليل نهار، وأنوار الشيخ النبهان تشع على الجميع، وسكونه في مراقبته يسبي العقول، وبكاؤه في لياليه يأخذ بألباب المتعبدين، فملأ السمع حديثه العذب، وملأ البصر وجهه الجذاب، وأما نظراته الأخاذة فكان لها وقع الغيث في الأرض المجدبة، ولم تمض سنوات قلائل حتى صار جامع الكلتاوية كما تراه زينة للبلدة وملجأ لطالبي الحق.

٩ ـ زهده في الدنيا

الزهد مركزه القلب، وهو من مقامات المؤمنين الصادقين، ومن علامة اختيار الله تعالى لمن قام به من المقربين.

وإذاً هو الإعراض في القلب عن الانشغال عما يبعد العبد عن الله تعالى ويظهر أثره على الظاهر كما ظهر على كبار الصحابة من تقليلهم من الدنيا ما أمكن مع التقشف والرغبة فيما عند الله تعالى.

ولما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم حارثة بن مالك الأنصاري قال له: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال:

أصبحت مؤمناً حقاً، فقال له عليه الصلاة والسلام (مطالباً إياه

بالبرهان على ذلك).

إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك، فقال:

عـزفت نفسي عن الدنيـا ـ أي زهدت فيها وانصرفت بقلبي عنها وهذا من علامة صدق الإيمان ـ واستوى عندي حجرها وذهبها؛ فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أرى عـرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتـزاورون فـيـهـا، وكأني أسـمع عـواء أهل النار، فـقـال عليـه الصـلاة والسلام:

(عرفت فالزم). أخرجه الطبراني والبزار وغيرهما.

ورسـول الله صلى الله عليـه وسلم قـدوة الجـمـيع، فـقـد كـان سيد الـزاهـديـن، لايبيت في بيتـه درهم ولا دينار ـ ولا يجمع بين إدامين إلا مـاندر، وسـار على أثره أصـحـابه رضوان الله عليهم. وقد يقول قائل: دعنا من أصـحابه فإنهم أشرقت عليهم أنوار النبوة واستعاضوا عن الدنيا بخير منهـا؛ إذاً لننظر مـثـلاً إلى سـيدنا عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه الذي كـان يلبس حلتـه قـبل توليـه الخـلافـة بألف درهم، فلما صار أمير المؤمنين وإذا به يلبس الحلة بأربعـة دراهم زهداً في الدنيـا وشـوقـاً إلى ما عند الله.

هذه آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا إلىٰ الآثار

وهذا إبراهيم بن الأدهم الذي كان من أبناء الأمراء حينما سمع هاتفا:

يا إبراهيم مـالهذا خلقناك ولا بهذا أمـرناك، وذلك حينما كان غافلاً في الصـيـد، وإذا به يخلع ثيـاب الغنى ويلبس ثيـاب الزهد، ويقبل على الله تعـالى بصـدق الإنابة فـيكون أجيراً يومـاً، وخـادماً أخر.. وهكذا حتى

أوصلته الأقدار إلى مكة وهنالك أفاض الله عليه من كرمه ما جعله سيد الزاهدين في عصره.

والزهد علامة اختيار الله العبد إذا أراد اجتباءه، فإنه يخرج حب الدنيا من قلبه ويقبل به عليه سبحانه، فيجعله سيد الناس، كذلك كان شيخنا النبهان قدس الله روحه ـ فهو من أبناء الأغنياء، ومال أبيه في يده وأوتي مع هذا جمالاً جذاباً، فكان يلبس الثياب الفاخرة التي تتزين به أكثر مما يتزين بها؟.

وكان له رفاق كان لهم خوضات في الفتن، فكان يأبى كل ما هو مشين ومعيب، رجولة وشمماً قبل أن يفهمه ديناً.

وحبب الله إليه الإقبال عليه، وترك الدنيا، فتركها مختاراً، تركها عن غنى لا عن فقر، وقد قيل للحسن البصري: أنت زاهد، قال: الزاهد عمر بن عبدالعزيز أتته الدنيا فتركها لله.

وهكذا ترك شيخنا الدنيا لله، وأقبل على الله فقبله ورفع قدره، وما زال معرضاً عنها متقللاً من لباسها وطعامها ومتاعها وقد حمل عائلته عبء سيره كذلك إلى أن من الله عليه بالفتح المعروف لدى أهل الله، فبدأ يشتغل في الدنيا مع النية الصالحة وعدم الانشغال بها عن الله، فكان أول ما عمل فيها أنه استأجر مع بعض الإخوان كرم فستق، ثم استأجر قرية (الجابرية) بجانب حلب، فجعل من العمل بالدنيا طريقاً إلى الدعوة إلى الله، فكان يعمل ليطعم الفقير ويعين العاجز، ويكسب المعدوم، وهكذا من دخل قلبه حب الله ورسوله وانكشفت الظلمات عن قلبه، فهو كما قال تعالى:

«رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله».

حينئذ يكونون في كل حالاتهم لله، وكل أفعالهم سير في طريق القرب من الله، يقول صلى الله عليه وسلم:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى».

والقوم أعني بهم أحباب الله تعالى صفت قلوبهم، وحسنت نواياهم، فكانوا في جميع تقلباتهم بالله ولله وفي الله، والحمد لله رب العالمين.

١٠ ـ الرؤيا الحسنة مقدمة الفتح الكبير

جاء في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أراد الله أن يصطفيه لرسالته حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، وداوم على ذلك مدة ستة أشهر، وكان يرى الرؤيا الحسنة فيأنس بها، ويذكر ذلك لزوجه خديجة، وما زال كذلك حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء، فظهر له جبريل عليه السلام عياناً، وهكذا شأن أحباب الله يبدأ خيرهم بالرؤيا الحسنة يرونها، وترى لهم كمبشرات حتى يكمل شأنهم.

رؤياه للحق تعالى:

حدثنا عن نفسه قدس الله روحه قال:

رأيت الحق جلا وعلا في ليلة مبدرة وهو يخاطبني.

عبدي إني أحبك وعلامة محبتي لك أني علمتك العلم، ولولا العلم لما عرف الإنسان كيف يأكل وكيف يشرب.

يقول شيخنا: وأفاض الحق علي في خطابه من بركات العلم، **قلت له:**

سيدي حينما رأيت الحق جلا وعلا هل رأيته بصورة؟ قال: لا، بل رأيت نوراً ملأ الآفاق وألهمت أنه الحق وخاطبني.

قلت: ورؤيا الحق في النوم لا مانع منها، لأنها تجسد روحاني، وتجيزها أهل السنة والجماعة.

وأن رؤيته تعالى في اليقظة في الدنيا لم تقع لغير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي الآخره واقعة للجميع وينشئنا الحق تعالى نشأة يمكن معها أن نراه سبحانه، فقد قال الله تعالى:

«وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظره».

رؤياه لرسول الله صلى الله عليه وسلم

قال لنا مرة: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده كأس من حليب فسقاني بيده الشريفة.

قلت: ومعلوم أن الحليب في الرؤيا هو علم الفطرة، فإذا كان الساقي هو النبي صلى الله عليه وسلم فمعناه أنه يتلقى علم فطرته من حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم وهذا من أعلى المرائي.

ومرائيه رضي الله عنه كثيرة جداً، وما زال كذلك حتى من الله عليه بالاجتماع به صلى الله عليه وسلم يقظة وكان أول مشهد رآه أنه رآه صلى الله عليه وسلم وبجانبه الصديق رضي الله عنه وهو يقول له:

هذا محمد، وكأنه يشير إلى أنه أخبره عنه قبل ذلك.

وقال له:

خذه إليك فتمم تربيته، ولذلك كان نور الله ضريحهُ يقول كثيراً:

شيـخي الروحـاني الصـديق، هو الذي سلمني إليه رسول الله صلى الله وسلم، كما أنه يقول:

إن أمي فاطمة الزهراء تبنتني، وهذا شأن أكابر الأولياء.

قلت:

والاجتماع في اليـقظة مع الرسول صلى الله عليه وسلم جائز ولا مانع منه فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرواح الأنبياء ليلة الإسراء وخطبـوا أمـامـه وصلى بهم إماماً، ثم اجتمع بأرواحهم مجسدة على شكل أجسـادهم الدنيـوية في السماء، وراجـعـه سـيدنا موسى في شأن الصلاة وتخفيـفها حتى بلغت خمساً بعد الخمسين، والاجتماع الروحي في اليقظة نتيجة الصفاء وصدق التعلق بالله ورسوله.

وقـد رأى الشيخ الأكبر سيدنا محيي الدين رضي الله عنه محمداً السبتي بن هارون الرشيد يطوف بالبيت، يقول الشيخ الأكبر فقيدته بنظري حتى لا يغـيب عني، وتبـعـتـه حتى أكمل طوافه، فقلت له: أعلم أنك روح متجسد، فمن أنت؟ قال:

أنا محمد السبتي بن هارون الرشيد، وسأله من كان قطب زمانه.

قال: أنا ولا فخر.

وكـان بعض الصحابة رضي الله عنهم يرون جبريل عليه السلام حينما يتجسد، وقد لا يرونه وهو يكلم النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد ورد أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما رأى رجلاً يكلم النبي صـلى الله عليـه وسلم، فلما ذهب، قـال: يا رسـول الله من هذا الرجل الذي كنت تكلمـه، قـال: ورأيته! قال: نعم، قال: إنه جبريل وستفقد

بصرك في آخر عمرك.

وحينما أتى جبريل كان على شكل أعرابي رآه الحاضرون كلهم وهنا لم يره إلا ابن عباس، فكان ذلك إشارة إلى صفاء بصيرته وقد أنشد ابن عباس رضي الله عنهما حينما فقد بصره:

إن يأخذ الله من عيني نورهما * ففي فؤادي وقلبي منهما نور

قلب ذكي وعقل غير ذي دخل * وفي فمي صارم بالقول مسلول

وفقد بصره لأجل رؤيته جبريل على هذا الشكل سر من أسرار أهل الله والله أعلم.

١١ ـ اجتماعاته الروحانية

وقد حججنا معه ـ قدس الله سره وروحه ـ سنة ١٣٨٥هـ الموافق ١٩٦٥م، ولما وقف أمام حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كشف الله عنه الحجاب فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له:

السلام عليك يا ولي نعمتي يا رسول الله، يريد أن كل مافيه من العلم والمعرفة كان ببركته صلى الله عليه وسلم.

وسلم على سيدنا الصديق وسيدنا عمر، وكان له مكالمة معه مما زاد في محبته لسيدنا عمر، هكذا أخبرنا.

وحدثنا مرات عن اجتماعاته الروحية بالأولياء ومنها:

قال: كنت جالساً مرة ومعي الشيخ أحمد المصري حفظه الله، والشيخ حسن الحاضري رحمه الله، وأنا بينهما، وإذا بالشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي أراه يقيمني من بينهما، ويضع عمامته على رأسي وكلمني في بعض

الشؤون، فلما انصرف قلت لهما: أما رأيتما الشيخ الأكبر، قالا: لا، قلت: عجيب، فعل كذا وكذا، فقال الشيخ أحمد المصري يا أخي ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال لنا مرة قدس الله روحه: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين أبي يزيد البسطامي.

قال: وكنت أجتمع بسيدنا إبراهيم بن الأدهم لمناسبة بيننا.

قلت: هي الزهد. ومعلوم أن سيدنا إبراهيم كان من أبناء الأمراء فزهد، والشيخ كان من أبناء الأغنياء فزهد أيضاً.

وأخبرنا عن نفسه قال:

اجتمعت مع سيدنا علي وسيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنهما، فتبنتني سيدتنا الزهراء، وهكذا سيدنا علي، وهذا التبني الروحاني عند أهل الله إنما يكون لمن بلغ مرتبة سيدنا سلمان التي جعلته من أهل البيت، وهذه المرتبة غير مرتبة الصحبة فهي مرتبة يمنحها الله تعالى لمن تأهل لها في أي زمان ومكان.

قلت:

لله في خلقه شؤون، أبو لهب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ مكان سلمان الذي كان مجوسياً عابداً للنار «سيصلى ناراً ذات لهب»، وسلمان يأخذ مرتبة أبي لهب التي تركها بعدائه للنبي صلى الله عليه وسلم، فدخل سلمان بيت النبوة بمحبته، وخرج أبو لهب من هذا البيت المبارك السعيد بعدائه.

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلىٰ ونتوجه إليك بنبينا

محمد صلى الله عليه وسلم وبأهل بيته الكرام الطيبين أن تلحقنا بأهل بيته، وأن تجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

آمين.

١٢ - قصة مع الشيخ أمين الحصني الدمشقي

قال لنا رضي الله عنه:

كان عندنا في جامع الكلتاوية ضيفنا الشيخ أمين الحصني رحمه الله تعالى، وكان عابداً بكاء ذا سمت حسن، وكان كثيراً ما ينشد عجز هذا البيت من الشعر:

كلما داويت جرحاً سال جرح

وكانت طريقته رشيدية، فقلت له: يا شيخ أمين دع الجرح لربه يداويه، وإذا بالشيخ إبراهيم الرشيد رضي الله عنه تتمثل روحه أمامي بجسد أسود حسن الوجه ينبعث النور منه، فكلمني قائلا: إن الشيخ أمين قد تم سلوكه ولكن المانع له من الفتح هو حبه للدنيا، فقلت: يا شيخ أمين قد أخبرت عنك هذا سيدي إبراهيم الرشيد يخبرني فإما أن تتكلم ما يمنعك من الفتح أو أخبرك فقال:

بل أخبرك: حب الدنيا.

قلت:

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» وكم مات رجال وقد أفنوا أعمارهم في الأعمال الصالحات ولم يشموا من روائح الفتح قليلاً ولا كثيراً، وذلك بسبب تعلق قلوبهم بمال

أو جاه أو شبه ذلك.

ورحم الله القائل:

أيها الخاطب معنى حسننا * مهرنا غالٍ لمن يخطبنا

جسد يفنى وروح للعنا * وعيون لا تذوق الوسنا

وفؤاد ليس فيه غيرنا * فإذا ما شئت أدِّ الثمنا

وكثيراً ما كان في أثناء الختم بعد صلاة الجمعة يأمر الناس بغمض عيونهم لعلهم يرون شيئاً مما يرى ويقول:

إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حضر اليوم، أو سيدنا عيسى أو غيرهم يخبرنا بذلك.

أما سيدنا زكريا فكان مرجعاً له في ابتلائه إبان سلوكه، فقد حدثنا رضي الله عنه قال:

كنت كلما اشتد علي البلاء أذهب إلى سيدنا زكريا وأجتمع معه، وأشكو له ما ينزل بي من البلاء، فيأمرني بالصبر، ويبشرني بشيء كثير، فيذهب عني كل ما كان يؤلمني.

قلت:

وابتلاء سيدنا الشيخ كان بسبب رفاقه عند الشيخ أبي النصر، وعند الشيخ نجيب سراج الدين رحمهما الله، وذلك أنه تكلم رضي الله عنه بشيء مما فتح الله عليه، فنقل الكلام إلى الشيخين وزيد فيه ونقص منه على عادة الناس في ذلك، فكان بسبب ذلك تهاجر وتقاطع لم يدم طويلاً، وفي آخر الأمر رجع الصفاء وعرفت الأمور على وجهها وياليتنا

جميعاً نعمل بقول الله تعالى:

«إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا».

قلت:

وقد كويت بالافتراء علي في حياة شيخنا وبعدها رحمه الله ورضي عنه ونقلت عني كلمة صحيحة وترك ماقبلها أو ما بعدها كمن نقل عن مدرس قوله «لا تقربوا الصلاة» ولم يتمها، وعلى كل سامح الله الجميع وجمع الشمل، ونقول كما قال سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام:

«من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي».

وأقرر هنا مسألة يستفيد منها كل ناصح لنفسه إن شاء الله تعالى وهي:

أن الإخوة من الجسم أو إخوان الشيخ لابد وأن يكون بينهم غيرة، وذلك نتيجة الحب لوالدهم أو شيخهم، وهذه الغيرة لها طريقان: فإذا غار شخص من أخيه وكانت غيرته روحانية فعلامتها أن يسابق أخاه في الأعمال الصالحة، وفيما يقربه إلى والده أو شيخه من دون بغض أخيه أو سواه، وإلى هذه الغيرة ندبنا الله تعالى بقوله:

«وفي ذلك فليتنافس المتنافسون» وهذه غيرة الصالحين أهل اليمين.

والطريق الثاني غيرة الحسدة أهل النفوس الغافلة إذا وجدوا أخاهم جسماً أو روحاً محظوظاً لدى والده أو شيخه، فإنهم يكيدون له العداء ويقصدونه بالأذى والافتراء.

وفي قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام درس كبير في ذلك. والذي عرف شيخنا النبهان رحمه الله حينما هاجمه بعض إخوانه كما تقدم،

يعلم مدى غفلة كثير من الإخوان وحقدهم نتيجة الحسد وهم المعدودون بين الصالحين، والعاقل الموفق هو الذي يراقب نفسه دائماً ليكون في حبه وبغضه وعدائه وسلمه مع الله تعالى، فلا يبغى ولا يظلم والله يحاسب كل إنسان على ما كسب.

١٣ ـ الشيخ قدس الله روحه في العراق

سافرنا معه أعلى الله منزلته ـ إلى العراق، ولما زرنا الشيخ عبدالقادر الجيلاني حدثنا عنه وعن ولده صالح وكيف أن ولده صالح تكلم معه، قال: وأظهر لي من المحبة الشيء الكثير، وكان بين الشيخ عبدالقادر وولده أمر، فذكره له، وكان مما قاله لنا:

أن سيدنا عبدالقادر الجيلاني قال له: أنت ضيفنا مادمت في بغداد وقد رأينا ضيافة سيدنا الشيخ عبدالقادر له بالإكرام البالغ الذي لقيه في بغداد وغيرها، والترحيب الواسع له ولإخوانه.

ولما زرنا سيدنا يونس في الموصل، وبجانبها نينوىٰ، وذكر لنا أنه رآه على شكله، ووصفه لنا بكبر عينيه.

وزرنا مكاناً قيل عنه أن فيه ذا الكفل عليه السلام، فحينما وقفنا عليه لم يقف إلا قليلاً وأسرع الذهاب، وقال: أعوذ بالله إن ههنا جسد خنزير أو يهودي، وتبين له الكفل (١) لا ذا الكفل، وكان من المبعدين، وهكذا في كل ضريح نزوره يخبرنا بما رأى وما قيل له.

وكان رضي الله عنه حينما يجتمع الاجتماعات الروحية يصفها وصفاً دقيقاً، وكأنه اجتماع جسمي، فرضي الله عنه وعن أوليائه وأحبابه.

(١) وكان الكفل كما هو مذكور في القصص الإسرائيلية من شرار الناس من بني إسرائيل.

١٤ ـ مع الشيخ يس الموقت

كان شيخنا رحمه الله يقول عن الشيخ يس الموقت أنه من أولياء الله تعالى، ويحترمه ويحبه، ولما توفي خرجنا معه إلى مقبرة الصالحين في جنوب حلب، ولما دفن رأينا الشيخ كعادته في المراقبة يغمض عينيه ثم يخبرنا.

وبعد انصرافنا سأل: هل كان الشيخ يس رفاعياً؟ فقيل له: نعم.

فقال: من أجل ذلك رأيت سيدي أحمد الرفاعي قد حضر ولكن سلمه لي لأن العادة بين الأولياء إذا حضر ميت بروحه وهناك ولي حي أن يكون الحي هو المشرف على الأمر الحاضر.

قلت:

والأولياء رضي الله عنهم هم أهل الأدب وإعطاء المراتب لأهلها سواء كانوا أحياء أم أمواتاً، ولكن أرواحهم مطلقة. والذي نستفيده من هذه الحادثة أنهم رضي الله عنهم يعرفون من انتسب إليهم ولو كان بينه وبينهم مئات السنين، والدليل على ذلك من السنة ما رواه مسلم:

أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم عن قريب لاحقون.. وددت أن قد رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال: أرأيت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دُهْم بهُم ألا يعرف خيله، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض.

والفرط الذي يتقدم القوم ليهيء لهم ما يحتاجون.

١٥ ـ مع الحاج محمد المهندس

وحينما توفى صهره الحاج محمد المهندس رحمه الله تعالى لقنه وقد كان يأمرني أن ألقن أهل العلم والإخوان، فلما قلت له: فإذا جاءك الملكان الى آخرها، نظرت إلى وجه شيخنا فإذا هو يبتسم فلما رجعنا أخبرني في الطريق أني حينما كنت ألقنه كلمة التوحيد ضحك رحمه الله وقال:

(أنحتاج إلى تلقيننا هذا)!

وهكذا كان دأبه قدس الله روحه، فقلما نخرج إلى جنازة إلا ويخبرنا عما كان بينه وبين الميت.

وكان صهره هذا من خيار الناس فيما نظن، وكان بساماً خلوقاً وابتلي آخر حياته بالمرض، رحمه الله وأجزل ثوابه.

١٦ ـ مخاطبة الأرواح ورؤيتها

قلت:

ومخاطبة الأرواح ورؤيتها من شأن أهل الفتح الكبير، وقد قال ـ قدس الله سره ـ مخاطبة الأرواح خصني الله بها فمن ادعاها فليس بصادق. وليس مراده أنه لا يكون بعده أحد، إنما أراد ـ نور الله ضريحه. أن لا تستغل هذه المراتب لأن هناك تخيلاً وخيالاً، فرؤية الأرواح حقيقة من خصوصيات أهل الخيال (١) لا التخيل (٢) وكثير من الصالحين وأتباع المشايخ يتخيلون بأنفسهم، وقد يدخل الشيطان في هذا التخيل فيختلط عليهم الأمر، والمرتبة موجودة، ولن يذهب ولي حتى يجعل الله له وارثاً، ولكن ليس كل مدع صادق أو مصيب. والله يحاسب كل إنسان علىٰ ما ادعى. فالمدعي لا بد له من سلوك يشار إليه من قبل الشيخ. وليعلم أن كل صادق يقابله كاذبون، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الصادق المصدوق وقد ظهر في زمانه ثلاثة يدعون النبوة كذباً، رجلان وامرأة: الأسود ومسيلمة وسجاح.

وهكذا الأولياء فكم ممن يدعي وليس له فيها إلا التخيل أو الدجل والله أعلم.

---

(١) الخيال: هو عالم روحاني له حقيقة تتجسد فيه الأرواح، ويدخله أهل السلوك عند تحقق صدقهم، فتظهر أمامهم أرواح بعض الأنبياء والأولياء كما ظهرت أرواح الأنبياء لنبينا صلى الله عليه وسلم في بيت المقدس وهو لا يكون بتكلف أو تحضير خاطر.

(٢) أما التخيل: فهو تكلف ذلك، وهنا يدخل الشيطان كما سمعنا من أشياخنا. ومن باب التقريب للحقائق.

الخيال شهود والتخيل اعتقاد، وبينهما بون شاسع.

١٧ ـ التجسد الروحاني وأدلته

إن التجسد الروحاني واقع وله أدلة شرعية، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرى الموتى المنعمين والمعذبين، كما ورد أنه زار المقبرة فرأى رجلين يعذبان، أخبر أن أحدهما كان مشاء بالنميمة وكان الثاني لا يستبرىء من البول.

كما رأى الجنة والنار أمامه في عرض الحائط في صلاة الكسوف وقال: ما رأيت كاليوم بعيني نعيماً وجحيماً.

والحائط موجود ولم يرفيه أحد شيئاً، وإنما هو تجسد رآه صلى الله عليه وسلم وهذا يقال له عالم المثال.

قلت: وهذا التجسد الروحاني يحظى به الأولياء كثيراً، ومعلوم ومشهور ما وقع لسيدي أحمد الرفاعي حينما زار النبي صلى الله عليه وسلم ومعه الجم الغفير فأنشد قائلاً أمام حضرته صلى الله عليه وسلم:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها * تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت * فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وإذا باليد الشريفة تظهر من الضريح ويراها الكثير من الناس ويقبلها السيد أحمد، ويعتقد كثير من أتباع السيد الرفاعي وغيرهم أن اليد الشريفة الجسمية هي التي مدت، والحقيقة:

أن هذا تجسد روحاني لأن اليد خرجت من الضريح وعلت فوق الناس، وهذا معناه أنها كانت طويلة جداً حتى رآها الناس، والجسمية محدودة الطول.

وليس في التجسد نقص في كرامة السيد أحمد رضي الله عنه، فقد رأي رسـول الـلـه صلى الله عليـه وسلم في بيت المقـدس وفي السماء الأنبـيـاء مـتـجـسـدين، وهذه هي الحـقـيقة، والفهم من شأن أهل التوفيق وأهل الاعتقاد، ومن هو دون علم وفهم لا يؤخذ به والله أعلم.

وهذه المرتبـة قـد تظهـر على بعض أصـحـاب الصـفـاء أيضاً في بعض المواطن ولكن إذا لم يتـحـقق الولي ولم يرق له حـجـاب الطبع ولا يكون ذلك إلا بسـبب كثرة الذكر والعبادة والبعد عن الظلمات مع السلوك على يد شيخ مربٍ عارف فهيهات أن يصح له هذا، لأنه قد يختلط الأمر عليه بالتخيل، سمّعنا هذه من شيخنا قدس الله روحه.

ولقد أكرمني في موسم حج سنة ١٣٩٧هـ فاجتمعت مع العارف بالله سـيـدي الشيخ محمد بلقائد الجزائري في مكة فسئل عن هذا الشيء فقال: إن الشـيـطان له دخل كـبير في التـخـيل وخـصـوصـاً من لم يقطع مـراتب السلوك والاسـتـقـامـة والحـفظ من الدعـوى بما ليس لنا فـيه قدم راسخ بشهادة مربٍ مرشد.

ونسأل الله تعـالى السـداد والاستقامة والحفظ من الدعوى بما ليس لنا فيه قدم راسخ والحمد لله رب العالمين.

وقد كان شيخنا رضي الله عنه وجزاه الله عنا خيراً، كثيراً ما يوصيني بقوله:

يـا بـني عليك بالشريعـة فإنها تحـفظك وتحـفظ منك، والمراد من ذلك الوقـوف مع الأحكام الشرعـيـة الظاهرة وترك الحـقائق الباطنة بين العبد وربه إلا حيث يوجد صاحب الأهلية.

وهناك جماعة لهم صلة بالجن، وتظهر عليهم علامات الكهانة في ذلك، ويدعون الولاية بسبب ذلك، وأكبر علامة على كذبهم سوء أخلاقهم وكبرهم وعجبهم، وهذا ليس من شأن أهل السلوك الذين ارتاضوا على التحمل والصدق والصبر والخلق الحسن كما قال القائل:

هذه آثارنا تدل علينا * فانظروا بعدنا إلى الآثار

ومن آثار الصادقين:

أكل الحلال والبعد عن الغش، وعدم جعل الدين موضع استغلال للوصول إلى الدنيا، والمنصف ينظر ويرى، وصدق الله تعالى إذ يقول: «إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل» والله من وارء القصد.

١٨ ـ أعماله العامة

كثيراً ما كنا نسمعه ـ قدس الله روحه ـ يقول: أتمنى أن أعمر مدرسة صغيرة فيها ولو عشرة طلاب يطلبون العلم لله، ويسلكون السلوك الصحيح الى معرفة الله تعالى.

قلت:

والعبد إذا صدق مع الله تعالى لابد وأن ينال مطلبه، ولكن أضعافاً مضاعفة.

وهكذا يسر الله تعالى لسيدنا الشيخ قدس الله روحه ـ تأليف جمعية النهضة الإسلامية في حلب كفرع عن جمعية النهضة الإسلامية بحماه، ولكنها في حلب حينما بدأت أعمالها بإشراف سيدنا الشيخ برزت أعمالها

على جميع فروع الجمعية في المدن السورية، فضمت أكثر من ألف عائلة تعينهم شهرياً بمعونات. وكان خير أعمالها تلك المدرسة الشرعية التي بدأت صغيرة كالشجرة التي تخرج عوداً واحداً وإذا بفروعها بعد مدة تكون دوحة عظيمة. وهكذا بلغت المدرسة المسماة بدار نهضة العلوم الشرعية أوجها في حياته المباركة، ووصلت إلى ست صفوف تدرس العلوم الشرعية وآلاتها، وصار طلابها يفدون إلى الأزهر المبارك لتكميل دراستهم، وكان مظهرهم وسيرهم من أحسن طلاب العلم، والسبب في ذلك رعاية شيخنا لهم بنصائحه في جلسة كان يعقدها لهم أسبوعياً، كما أنهم ارتبطوا به كمريدين، وكانوا يرجعون إليه في كل ما يهمهم: سيراً إلى الله وأدباً وخلقاً، وقد قرت عينه رضي الله عنه بهم، فكم كان يفرح بهم وهم حوله في المسجد أو في المدرسة أو في غير ذلك على حسب المناسبات، وحق له رحمه الله أن يفرح بهم، إذ أنه يعدهم ليكون كل واحد منهم مرشداً ومعلماً ومهذباً.

• وكان دأبه رضي الله عنه أن يجمع لطلاب العلم مع الطلب التربية والسلوك إلى الله تعالى.

فمطالعة العلم تذهب بالجهل وتوابعه، والورد يذهب قسوة القلب ويضيء جوانب النفس، ويضفي على السير إلى الله بهاء وروعة على العلم، وما أحسن اجتماع العلم والعمل والخلق.

وقد كلفني قدس الله روحه ـ بإدارة المدرسة في أول فتحها وهيأنا سبح للطلاب للذكر، ولكن شاء الله لحكمة أرادها أن أترك الإدارة وأبقى كمدرس فيها، وبذلك سار الطلاب فيها بالعلم، وأجل سير الورد فيها، وكان يعوضهم عن الورد الخاص وجود شيخنا قدس الله

روحه بينهم، فكانت نظراته وتوجيهاته ونصائحه تغذي أرواحهم وكأنهم من المكثرين للأوراد.

هذا في حياته، وأما بعد انتقاله فلم تزل المدرسة علمياً سائرة جيداً والحمد الله، ولكنها فقدت ذلك النفس النفيس، فاللهم احفظها بحفظك آمين.

١٩ - سيره الاجتماعي

من المعلوم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام يحبب إليهم الخلوة في بدايتهم حتى يؤهلهم الله تعالى لتلقي الوحي، وذلك أن الإنسان إذا بقي بين الناس مخالطاً يسمع لغو كلامهم، ويرى وجوههم وقد كستها الغفلة، فلا بد أن يغان على قلبه ولا يجتمع له شمل. ولا يصفو له قلب، فإذا انفرد بنفسه وصفا نظره للتفكر في خلق السموات والأرض وارتاحت حواسه من التأثر بظلمات الغافلين، حينئذ تتنزل عليه الإلهامات إن كان ولياً، أو الوحي إن كان رسولاً قال الله تعالى: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة» وهكذا القى الله في قلب شيخنا في بدايته محبة العمل في الدنيا، ثم ألهمه الله تعالى أن يسير في طريق معرفة الله تعالى.

فأخذ الطريقة النقشبندية على شيخنا أبي النصر، وسار بالعلم مع الطريق، وأخذ نفسه بالحق والتطبيق، وما زال كذلك حتى هيأه الله تعالى للبروز للمجتمع، ففتح الباب وجلس للناس يرشدهم ويهذبهم بما علمه الله وأعطاه، وما زال كذلك وفي كل يوم يظهر الله تعالىٰ أمره ويرفع ذكره، وأقبل الناس عليه من سائر الطبقات.

٢٠ ـ خيراته ومبراته

سبق أن ذكرت:

أن شيخنا رضي الله عنه لم يأخذ من مال أبيه في حياته شيئاً رغم عرض والده عليه ذلك مراراً ولو لأولاده، فكان يأبى عليه، وهذا شأن السالكين دائماً في بدايتهم أن يتجردوا عن الدنيا زهداً فيها وانشغالاً بالإقبال على الله تعالى حتى إذا فتح الله عليهم بمعرفته واتسعت دائرة معارفهم وقويت أنوارهم رجعوا إلى العمل في الدنيا، ولكن بنية صالحة كما قال تعالى: «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله».

فصار عملهم في الدنيا عبادة يتقربون بها إلى الله تعالى، وعلامة ذلك أن يبذلوا دنياهم حينما يبسطها الله عليهم في خدمة دينهم وينفقوها في وجوه الخيرات، لا يردون أيدي الطالبين، ولا يخيبون رجاء القاصدين «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً».

فجعلوا الدنيا بهمتهم مدنية لهم إلى الله، وهي للغافلين المشغولين بها عن الله دنيئة سافلة، فهي وصف من أخذها، فمن كان قريباً من الله فهي معينة له على قربه يستخدمها في سبيل الله، وكان أول عمل عمله فيما أعلم أنه استأجر مع بعض إخوانه كرم فستق في قرية (عياشة)، فرزقهم الله منها ما استعانوا على عيشهم الكريم، ثم استأجر قرية (الجابرية) قرب حلب وبقي فيها نحواً من ثمانية أعوام، ثم استأجر قرية (التويم) آخر أمره، واشترى بعض الأراضي فيها، وكان حيثما حل يلتف حوله أهل القرى فيرشدهم ويسلكهم إلى الله، وكثير منهم يعملون عنده ويسيرون على هديه، ورحم الله القائل:

تحيى بهم كل أرض ينزلـون بها * كأنهم في بقـاع الله أمطـار

والـذي يـعـرفـه ويخـالـطـه رحمـه الـله ونور ضريحه يرى آثار الخيرات والسـخاء الذي كان يبذله حتى أنني مراراً قلت: يا سيدي إنك تتعب في إدارة هذه الأعمال، فلو وكلت رجـلاً يقوم بذلك فيقول ـ نور الله مرقده ـ يا ولدي إنني أعـمل لأخدم الفقراء ولا أجد غيري يتقن العمل، والله يحب إتقان العمل.

قلت:

وهـذا شأنه قـدس الله روحـه في أي عـمل دخله فإنه لا يرضـيـه إلا الإتقان، لأنه ربط أعماله كلها بالله، فلم يبق هناك عمل دنيوي وأخروي بل كل الأعمال لديه ارتبطت بنية صالحة مقربة إلى الله تعالى وسمعته مرة يقول:

بعـد مـوتي تعـرفـون العـوائل من الأيتـام والأرامل وغيرهم من الذين سخرني الله لخدمتهم، وهكذا كان، فكنا نراه في حياته لا يكاد يرد سائلاً ويتأسّى دائماً برسـول الله صلى الله عليـه وسلم حـينما يطلب منه مـاليس عنده يقول: (استدن علي).

وكان بعض الناس يلومون شيخنا على استدانته لإعطاء الناس فيجيبهم بالحـديث (اسـتـدن علي)، ومـا زال هكذا رضي الله عنه حتى توفاه الله وعليه الديون الكثيرة.

والمأمـول منه سـبـحـانه وتعـالى أن يبارك في رزق أولاده حتى يفوا ما عليـه، ليـبـقى لهم ذكـر الدنيا وثواب الآخرة، والأولاد البررة هم الذين يبرون والدهم بعـد وفاته، كما كان في حياته، ومن بره أن لا يدعوا أحداً

يطلب دينه ولو في قلبه، بأن يعرضوا على كل من له دين حقه، فمن تركه لله تقرباً إلى الله فلنفسه، ومن أراد دينه أعطي حقه مع إشعاره بالرضى والدعاء.

اللهم وفقنا لأحسن ما توفق له عبادك الصالحين يا رب العالمين.

٢١ - استخاراته

جاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن يقول:

إذا هم أحدكم بأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة وليقل بعد السلام، اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (قال: ويسمى حاجته من زواج أو غير ذلك) خير لي في ديني وعاجل أمري وآجله فيسره لي وبارك لي فيه يا أرحم الراحمين، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرلي في ديني وعاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدرلي الخير حيث كان ثم رضني به).

هذا الدعاء النبوي يسن لكل مسلم إذا أراد أي أمر أن يصلي ويدعو به ثم يفعل ما ينشرح له صدره، وما سوى ذلك من الاستخارات من النوم وتقليب المصحف، وسحب السبحة وغيرها فلم ترد عنه صلى الله عليه وسلم، ولما تغلبت في زماننا الغفلة على القلوب فلم تميز بين الخواطر الملكية والخواطر الشيطانية ولم يبق عندها تتميز بين انشراح الصدر للخير أو لشهوة نفسية، لذلك كان شيخنا رضي الله عنه وقد آتاه الله تعالى من

صفاء القلب وصحة الفهم ما آتاه يصلي ويستخير الله تعالى له ولغيره، وكانت استخاراته لا تكاد تتخلف عما يقوله، وإذا ظهر أن بعضها لم يكن كما قال، فلخلل في تطبيق العمل كما سمعنا يقول في ذلك:

إذا تخلفت الاستخارة فذلك لخلل في ترك شرط أو شبهة.

وقد قال مراراً هذه الاستخارة لابد لها من روحانية قوية حتى يخرق حجاب الطبع والحس ليصل إلى الكشف الروحاني في ذلك، حينئذ تتجسد الأمور أمامه على شكل يعمل فيه خيراً أو شراً، هذا التوضيحً مني لكلامه قدس الله روحه.

وعلى المسلم أن يواظب على هذه الاستخارة لنفسه، ولو لم يكن عنده كشف بل ينوي الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أراد للمسلم أن يرتبط بربه في سائر أعماله في استخارته له وفي سائر شؤون الدنيا والآخرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

(ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار)

وكفي بذلك خيراً والله تعالى أعلم.

٢٢ ـ أولاده

رزق الله تعالى شيخنا ولدين ذكرين وخمس بنات:

الأول: السيد أحمد أبو فاروق، وفقه الله وحفظه، وقد كنا نشعر محبة سيدنا الشيخ له، ويصفه بصفات الرجولة ويمدحه بأنه له عقيدة بأولياء الله تعالى، وخصوصاً بوالده، وقد ظهر آثار مدحه له بذلك بعد وفاته، إذ أن السيد أحمد وفقه الله منذ انتقال شيخنا إلى رحمة الله لازم غرفة

الجامع، وبذلك بقي كموئل الإخوان يشمون منه رائحة شيخنا ـ قدس الله روحه.

والحقيقة أن السيد أحمد قد أعطاه الله تعالى ذكاء وعقلاً جيداً، وله شخصيته المحترمة، ونسأله تعالى أن يتمم عليه النعمة وتهب عليه نسمات الجود الإلهي، فيكون قرة عين والده في الدنيا والآخرة، وقد رزق الله السيد أحمد ولده الدكتور محمد فاروق الذي بلغ بجده ونشاطه مركزاً ممتازاً في المجتمع العلمي العالي، حتى إن الملك الحسن الثاني من المملكة المغربية طلبه رسمياً من دولة الكويت التي أعطتة تقديراً وتكريماً قلما يحظى به غيره، وذلك ليكون مديراً لدار الحديث الحسنية في المملكة المغربية، وكان له استقبال فخم وتكريم عظيم لدى وصوله إلى المغرب، وبذلك كان قرة عين جده ووالده وعائلته جميعاً، زاده الله توفيقاً وأعلا قدره تكريماً هو وإخوته آمين.

والولد الثاني لشيخنا هو: السيد عبدالله، وقد كان شيخنا يحب فيه بساطته ويرأف عليه، وهذه فتوة وكرم، وفقه الله وأولاده آمين.

وبنات شيخنا خمسة، سترهن الله وأكرمهن كما أكرم إماءه الصالحات وكلهن من خيار النساء إن شاء الله، حفظهن الله وبارك لهن فيما أعطاهن، وبارك في أولاد شيخنا جميعاً رجالاً ونساءً وفي أولادهم وذرياتهم إنه سميع مجيب.

٢٣ ـ مريدوه رضي الله عنه

كان لشيخنا رضي الله عنه مشربه الخاص في التربية هو السير في المحبة، فكان دائماً يمدح الحب ويحث على المحبة والاتباع أخذاً من قوله تعالى:

«فاتبعوني يحببكم الله».

وكان شيخنا أبو النصر قدس الله روحه يسير الناس بالذكر، والسبب في اختيار شيخنا النبهان سير المحبة لأن فتحه كان بذلك، فقد سلك على يد شيخه أبي النصر رحمه الله بالذكر مدة، وكان يعتكف في رمضان في جامع الكبير، فيكثر من الذكر، حتى وصل ورده إلى ثمانين ألفاً كما سمعنا ذلك منه، ومعلوم أن أقل الورد للطريقة النقشبندية خمسة آلاف مرة (الله) ذكراً خفياً في القلب، ثم من الله تعالى عليه بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد محبة شيخه وإذا يرىٰ الحب طياراً بعد أن كان في الذكر سياراً. وهناطاب عيشه وصفا مشربه وقرت عينه بمحبة الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان شيخنا أعلى الله مكانته ذا شخصية جذابة يهيمن على من جلس إليه بالحب والخلق الحسن فبهر إخوانه ما هو فيه من همة عالية وصدق أخاذ وتوجيه جيد، فألقوا بأعنتهم بين يديه، وكانوا إذا جلسوا عنده يذاكرهم في الله ارتفع بهممهم، وحلق بهم حتى ينسوا أنهم في أرض الدنيا بل في سماء المحبة والشوق إلى الله، يذوقون ما يتكلم به وذلك بسبب حبهم له واعتقادهم فيه، ولا عجب، فقد كان كلامه مؤثراً لأنه يتكلم ذائقاً حقيقة ما يقول، أضف إلى هذا: قوة شخصيته وجاذبيته التي منحه الله إياها، والتي كانت تبقي أثر المذاكرة على الاخوان مادام

خيـاهم مع الشـيخ، وهذه هي الرابطة التي يعنيـها أهل السير والسلوك المسـتـفـادة من قـوله تعـالى: «يا أيها الذين أمنوا اتقـوا الله وكـونوا مع الصـادقين». والمعـيـة جـسميّة أو روحية، وبما أن هذه الرابطة تحتاج إلى صـدق دائم وحضور مستمر ويقظة متتابعة حتى تعطي ثمرها لذلك نجد أكـثـر السـالكين تـتـفلت منهم أنوارها حينما يفارقون مرجعهم كما ورد في حديث حنظلة قال:

(يـا رسـول الله نكون عندك تذكـرنا بالنار والجنة، وكأناً رأي العين، فإذا خـرجنا من عندك عـافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال له عليه الصلاة والسلام:

(والذي نفسي بيـده لو تدومـون على مـا تكونون عندي لصـافـحـتكم الملائكة على فـرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة سـاعة وساعة، ساعة وساعة، ساعة وساعة). أخرجه مسلم.

وهذا أصل أصـيل في الارتبـاط بالمربي حـتى يتحقق بعد ذلك بمراقبته لله تعالى في جميع أحواله، وقد كنت ألحظ هذا من نفسي وغيري، أي أن مجلسنا مع الشيخ لا يبقى أثره كما هو بعد فراغنا من المجلس فكنت أقول له: يا سيدي لو شغلتم الإخوان بورد أعني ذكر الطريقة النقشبندية، فإن ذلك يعينهم على بقاء حضورهم.

وقلت له: يا سـيـدي ليس كل الناس قـد أعطاهم الله مـا أعطاك من صدق الوجهة والمحبة.

وكـان يـقنع مني بهذا، حـتى عـزم في بداية فـتح المدرسـة على تسـيير الطـلاب بالعلم والذكـر مـعـاً، واقـتـنـاعـه بذلك لأنه يعلمـه من نفسه

ومن غيره، ولكن شاء الله لأمور يعلمها هو أن يرجيء هذا السير إلى أجل آخر.

ولقد كان سيدنا يبغى من وراء تربيته أن يمشي على أثره صلى الله عليه وسلم في المحبة والاتباع، ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس له حباً، وثمرة هذا الحب الاتباع إذ أن المحب له صلى الله عليه وسلم لابد وأن يظهر عليه أثر ذلك كما ظهر على أصحابه رضوان الله عليهم، فكان منهم الزاهدون، الصادقون، الأسخياء، المجاهدون، المتخلقون بالأخلاق الحسنة.

ومعلوم أن الحب قد يكون طبيعياً عن عصبية أو قرابة، وعلامة هذا عدم التأسي بالمحبوب، وعدم ظهور أخلاق المحبوب على المحب، بل قد يكون لاستغلال دنيوي وكسب مرتبة دنيوية، وهذا غير الحب الروحاني الإيماني الذي من علامته الاتباع للمحبوب مع التقوى والأخلاق الفاضلة والله أعلم.

٢٤ ـ كلمات في الحب وأقسامه

والحب من حيث هو ينقسم إلى ثلاثة أقسام كما قال سيدنا الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي رضي الله عنه:

حب طبيعي، وحب روحاني، وحب إلهي.

قلت:

الحب الطبيعي: تدخله الشهوات الطبيعية من تلذذ بالشكل الحسن والصوت الغرد والإحسان إلى المحب وشبه ذلك، وهذا الحب يزيد وينقص وقد ينقلب إلى بغض إذا خالف المحبوب مرادات المحب، وهذا

أكـثـر حب الناس لبعضهم بعضاً، حتى مع أشياخهم الذين عاشوا معهم زمناً طويلاً في مجالس المذاكـرات وحلقـات الذكر، لذلك نراهم يرتفعون بـالـعـاطفـة ويهبطون بها والمنافع والمآرب الظاهرة والبـاطنة تملأ جـوانب هـؤلاء المـحـبـين، وهـذا الحـب لا يزيد في السير إلا كـوسـيلة الى الحب الروحاني، ويصله به، وكلما سما صاحبه في معارج النزاهة فإنه يقرب من الحب الروحـاني العظيم، الذي هو التـقـاء الروحين نتيجة صدق الوجهة الى الله تعالى وأثر العمل الصالح الصادق من ذكر دائم متواصل مع تعبد بالصـلاة والصـيام والتلاوة كما قال تعالى «أمن هو قائم آناء الليل ساجداً وقائماً».

ولا يزال كـذلك حتى تتهاوى الحجب الطبيعية من نفسه فتكون روحه شـفافة مشرقة بنور الله تعالى، حينئذ، تلتقي روحه بروح شيخه أو روح نبـيـه صلى الله عليـه وسلم في آفاقها العالية المرتفعة فوق سحب الحجب الطبيعية التي تتكون عن الشهوات.

وهكذا يعـرج المحب الروحـاني في معاريج تحبيب الله له كل الكمالات وبعـده كل البـعـد عن الالتـقـاء مع دركـات الظلم ومهابط الشر، وبعد انكسـار زجـاجـة الطبع واشتغال الروح بنور بارئها وخالقها يتولد الحب الإلهي من فـيض النور الأقـدس فـيـخـرج من التوحيد إلى الأحدية، فلا حس ولا سـمع ولا نطق ولا بصر إلا بآثار الآحـدية، وهنا يسـمع بكله بلبل الحـبـيب يناديه من أعالي اغصان الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت في حقائق العبدية، وفرعها في سماء الحقيقة الإلهية.

فإذا أحـببته كنت سمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها إشارة إلى الحديث القدسي:

(لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل)، وإذا به هو المشكاة التي بها المصباح الموقود من زيت الشجرة المباركة المعتدلة لا شرقية ولا غربية وهنا تصدح أطيار الكمالات القدوسية على أغصان شجرة العبدية مغردة:

أحبك حبين فحب هوىً * وحب لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى * فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له * فتركى الخلق حتى أراك

وفي رواية: فكشفك لي الحجب حتى أراك.

ومرة أخرى أقول: الحب من حيث هو روحاني: هو القوة القاهرة للشهوات، والغذاء المشرق للأرواح الطاهرات بألحانه تغرد طيور الأرواح على أفنان أشجار القلوب فتتجلى أسرار الله تعالى على صفحات أمواج المعارف الإلهية وتغوص حيتان الحياة إلى أعماق بحار العلم الإلهي فتستخرج درر المعرفة بالله، ولا يزال التبتل في محاريب أنوار تقوى السوى يمد حقيقة الذات فتشتعل جنباتهم بنور الانغمار الكلي في بحار حياة الذات حتى تفنى النفخة المنبثقة من حقيقة «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي» عن ذاتها وتبقى مشاهدة بكليتها ربها، حينئذٍ تقرأ العوالم كلها، مباركة للمحب بقاءه بمحبوبه.

«يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي».

وإليك أضواء ممن ذاقوا حلاوة هذا الحب النفيس: قيل لمعروف الكرخي ـ زاده الله معرفة به ـ أخبرنا عن المحبة أي شيء هي؟؟ قال:

يا أخي ليست المحبة من تعليم الناس، المحبة من تعليم الحبيب. وقال

أبو يزيد البسطامي: توهمت أني أذكره وأحبه وأطلبه فلما انتبهت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته سبقت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي أولاً حتى طلبته.

وقال الإمام الغزالي رضي الله عنه:

إن لله شراباً يسقيه في الليل قلوب أحبابه، فإذا شربوا طارت قلوبهم في الملكوت الأعلى حباً له تعالى وشوقاً إليه.

وسئل أبو سعيد الخراز رضي الله عنه عن المحبة فقال:

طوبى لمن شرب كأساً من محبته وذاق نعيماً من مناجاة الجليل، وقربه بما وجد من اللذات بحبه فملأ قلبه حباً، وطار طرباً وهام به اشتياقاً ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه.

وقال الحلاج رضي الله عنه:

حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك والاتصاف بأوصافه ثم قال في تحقيق فلسفي في الحب:

يحب الله ذاته في انفراده بحمد ذاته ويتجلى في الحب، وعن هذا التجلي في الحب المطلق الإلهي، ظهرت أسماؤه وصفاته، فبالحب تجلي لنفسه بنفسه، فلما أحب أن يرى ذلك الحب بعيداً عن الغيرية، والثنوية في صورة ظاهرة، أخرج من العدم صورة لها جميع صفاته وأسمائه، فكانت هذه الصورة الإلهية (آدم) الذي يتجلى الحق فيه.

وقال الحلاج رحمه الله: لا سبيل إلى معرفة الله بالعلم، بل إن الحب هو الطريق إليها، إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهي هي التي تقربنا

من الله، بل إنما هو خضوع القلب للأمر الالهي في كل لحظة:

ويقـول أيضـاً: ما من أحد يعبد الله بفعل يكون أحب إلى الله تعالى. من حبه تعالى.

قلت:

وهكذا إذا تحـقق الإنسـان في ميادين الحب وتذوقها، فإن حديثه ينشر عـبقاً على الأرواح فتتنفسه القلوب الفاضلة ويغذي بحديثه الحار النفوس التي لهت في مـتطلبـاتها وعلقت في شـبـاك شهواتها، انظر قوله رضي الله عنه:

مكانـك في القـلب هـو القـلب كـله * فليس لخلق في مكانك موضع

وجـعلتك روحي بين جلدي وأعظمي * فكنت تراني إن فقدتك صانع

لقـد مـلأحـبـه جميع مافيه فليس لغير محبوبه مكان فيه، لذلك يخاطب حبيبه قائلاً:

سـكنت قلبي وفـيـه منك أسـرار * فليـهنك الدار بل فليـهنك الجار

مـافـيـه غـيـرك من سـر علمت به * فانظر بعينك هل في الدار ديار

لقـد أخـرج كل شيء من قلبـه، ولم يبق فـيـه إلا صـاحبه الذي ملكه بحـبـه، وأصـبح يسمع نداء حبيبه من قلبه كما سمع موسى عليه الصلاة والسلام النداء من الشجرة فيجيبه:

لـبيـك لبيك يـا سـري ونجـوائي * لـبيك لبـيـك يـا قـصـدي ومـعنائي

أدعـوك بـل أنت تدعـوني إليك فـهـل * نـاديـت إيـاك أم ناجيـت إيـائي

يـا عـين عين وجـودي يا مـدى همي * يـا منطقي وعـبـاراتـي وأعـيـائي
يا كل كلي ويا سمعي ويا بصـري * يا جملتـي وتباعيضـي وأجـزائي
يا من به علقت روحي فقد تلفـت * وجداً فصرت رصنياً تحت أهوائي

وهكذا سار يجمع آماله وآحلامه المشتتة حتى توحدت فهتف يقول:

كانت لقلبـي أهواء مفـرقة * فاستجمعت منذ رأتك العين أهوائي
فـصار يحسدني من كنـت أحسـده * وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
مـالامنى فـيك أحـبـابي وأعـدائي * إلا لغـفلتـهم عـن عظـم بلوائي
تركـت للناس دنيـاهم ودينهم * شـغـلاً بحـبك يا ديـنـي ودنـيـائي
أشـعلت في كبـدي نارين واحدة * بين الضلوع وأخـرى بين أحشـائي
ولا هممت بشرب الماء من عطش * إلا رأيـت خـيـالاً مـنـك في الماء
الـنـار أبـرد مـن ثـلج على كـبـدي * والسيف ألين من هجـران مـولائي

قلت:

وقد كان شيخنا النبهان قدس الله سره حين أكرمه الله في سيره بمحبة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم تظهـر عليـه آثار هذه المحـبة في كلامه وسكوته وقيامه وقعوده، وكأنه وقد ألبس حلل النور وشهد الله كنا نراه في ذلك الحـال ونرى الأرض التي يمشي عليـهـا تحـبـه، وجميع مـا حوله يتـعلق به وتسري منه إلى غيره محبـته صلى الله عليه وسلم، وكان في إبان حيـاته يجلس مع شيخنا أبي النصر قدس الله روحهما - وكان يغلب عليه الإطراق، وإذا بدأ المنشـد بالإنشاد ترى الدموع تنحدر على خديه، وكان

شيخنا أبو النصر رضى الله عنه يقول لمنشده أبي حسن: يا أبا حسن أنشد للشيخ محمد يعني سيدنا النبهان:

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي * يضركم لو كان عندكم الكل

سمعت شيخنا النبهان يتحدث عن نفسه ويقول:

كنت حينما أسمع هذا البيت فلا يتمه المنشد حتى أغيب عن المجلس وتذهب روحي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبقى ساعتين أو أكثر وربما انفض المجلس وأنا في غيبتي، ولكم عرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحي معه إلي السماء فأراني عجباً.

قلت:

ومن هنا كان شيخنا النبهان حينما يدخل على شيخنا أبي النصر يلتفت إليه بكليته حتى صار الاخوان من غيرتهم يقولون. جاء ابن الجديدة يلومون الشيخ على تقديمه بالالتفات على غيره.

قلت:

وفي الحقيقة أن الشيخ لم يقدمه بنفسه، وإنما الصادق الحقيقي حينما يكون في المجلس يفرض شخصيته على شيخه وعلى المجلس، وحيثما حل هو المنظور إليه، وذلك لأنه حامل السر الإلهي.

ولما أكرمه الله تعالى بالحب الإلهي هيمن على ما سواه، وسمعته رضي الله عنه يقول: حينما يدخل المريد في الحب الإلهي لا يذهب منه الحب النبوي ولا حب شيخه، ولكن كما إذا طلعت الشمس غطى نورها نور القمر والنجوم، لذلك كنت أنظر إليه في إبان كماله وإرشاده فأذكر قول الجنيد رضي الله عنه حينما سأله سائل قال: يا سيدي كنت قبلاً تصرخ

عند الذكر والسماع وتبكي وتظهر عليك الأحوال، فما بالك الآن لا يظهر عليك شيء من ذلك.

فقال له: «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب». وهكذا كنا نرى شيخنا في سكونه وتحمله للأحوال كما قال الشيخ الرواس رضي الله عنه.

إن في العاشقين منا رجالاً * هم رجال شكلاً ومعنى جبال

قلت:

ظهور الأحوال على المبتدئين من سنة السالكين، منهم في بدئهم تظهر عليهم آثار الذكر والتلاوة لضعف تحملهم، فإذا قواهم الله سكنوا وصارت أحوالهم تموج في قلوبهم، ولكنهم يتغلبون عليها وهذا هو الكمال.

٢٥ ـ أثره على إخوانه

وبالجملة فالإخوان الذين صحبوه عن عقيدة وحب امتازوا بهيئة حسنة وأدب ظاهر، ظهر عليهم في كثير من ميادين حياتهم وكان منهم إخوة طيبون في العراق ، وكان من أوائلهم الشيخ محمد الكبيسي: وهو الذي كان الصلة بين الشيخ والعراقيين، ونشر عن الشيخ آثاره الحسنة في بغداد، ثم دعاه إليها فسافرنا مع شيخنا إلى بغداد فصار له استقبال حافل وخصوصاً لدى الكبيسيين، وأكرم بآل الفياض، الحاج محمد رحمه الله تعالى وأولاده الكرام وأولاد أخيه، فقد أحبوا الشيخ حباً جماً، وجعلوه مثلهم الأعلى، ولا تنس الأمير ناظم العاصي في الحويجة بين بغداد وكركوك، فقد دعا الشيخ وإخوانه إلى بيته، وقام بما يليق بأمثاله من

الخدمة للشيخ والإكرام، وجزى الله إخواننا العراقيين عموماً على خدماتهم، وقد كان من آثار ارتباطهم بشيخنا ـ قدس الله روحه ـ أن فتحت عدة مدارس في الرمادي والفلوجة وبغداد وكبيسة، وهيئت على نمط المدرسة في جامع شيخنا رضوان الله عليه، وطلاب هذه المدارس على شكل طلاب الكلتاوية شكلاً وسيراً.

والحقيقة أن طلاب مدرسة شيخنا رضي الله عنه ـ زينة الأعين وسرور القلب في حسن هيئتهم العلمية وتربيتهم، وخصوصاً من كانوا في حياته الشريفة، وكانوا يستمعون إليه وهذا لا يتنافى أن قلة منهم خرجوا عن السير المعتاد فقد كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخلو من منافقين.

وكثير من إخوان الشيوخ يتراجعون بعد موت شيخهم إلى دنيا أو غفلة إلا من وفقهم الله فثبتوا على سير شيخهم وكانوا مع بعضهم يحترمون كبيرهم ويرحمون صغيرهم. وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

٢٦ ـ درس النساء

كان درسه للنساء يوم السبت والأربعاء، وقد كان للدرس أثر حسن في تربية النساء على شتى المستويات، وكان يجتمع في الدرس الجم الغفير من النسوة، وحينما يخرجون من الدرس يشكلن أثراً بيناً في المسلمات المتحجبات، وسرى ذلك إلى نساء الأخوات في القرى، فكان نساء القرى يتحجبن ويبتعدن عن الاختلاط، مع أن القرى يختلط الرجال والنساء فيها غالباً، والحقيقة أن المرأة إذا كانت متدينة صالحة كان لها الأثر الكبير في بيتها وفي المجتمع العام، وأول ما يظهر أثر ذلك على بناتها

وزوجـهـا، إذ أنها حينما تكون متدينة وخصوصاً مع الثقافة، فانها تعرف كـيف تقـوم بواجـبـهـا كزوجة وأم خير قيام، وتظهر آثار السعادة والخير عليها وعلى ذويها، وقد أمرني ـ قدس الله روحه ـ في حياته بافتتاح درس النسـاء في جـامع أسـامـة بن زيد حيث إمامتي وخطابتي، فكان له الأثر الجـيد ـ والحمد لله ـ وقد استأذنته أكثر من مرة قبل وفاته رحمه الله تعالى بترك درس النسـاء بسـبب قـالة بعض الناس، فـقـال لي: يا ولدي اترك درس الـرجـال ولا تـترك درس الـنسـاء لأن تدريسـهن له أثره الكبير في إصلاح المجتمع (١).

٢٧ ـ حج مع إخوانه قدس الله روحه

في سنة ١٣٨٤هـ أمـرني بالذهاب إلى الحج، فامتثلت أمره وكانت أول حـجة حجـجتها، وتمم الله فضله وبركته علي، وقد أرسلت له رسالة من مكة مـؤثرة تفـيض بالمعـاني الروحـيـة، ولما رجـعت من الحـجاز دخلت المسجد لأسلم عليه، وذلك قبل أن أدخل بيتي وهذا هو الأدب، فبشرني قـائلاً في السنة القـادمـة سنكون في الحج جميـعاً إن شاء الله، وهكذا كان فـقـد خـرج مـعـه نحـو من أربعمائة حـاج رجـالاً ونساءً، وركبوا جميعاً الباصات إلى ميناء العقبة في الأردن، ومن هنالك ركبنا الباخرة إلى جدة، وكـانت أيامـه في الحج حـقـيـقة أيام ضيافة في رحاب الله عزوجل، فقد بعث إليـه أمير مكة من آل سـعـود وفـقهم الله أن يكون هو وإخوانه في

---

(١) وقـد بدأت بناء على ذلك بفـتح مـدرسـة شرعية للبنات ما عدا الدرس العام، وهذه المدرسة مشـتملة الآن على صفين حين كـتـابة هذه الأحـرف، وسـتكون ثلاثة صفوف إن شاء الله ودروسها شرعية ومعها آلاتها كالنحو والصرف ودروسها: حفظ القرآن واتقانه قراءة حضور وغـيب وفـقـه وتفـسير وحديث وسيرة وعقيدة وتهذيب أخلاقي وحساب وخياطة وتطريز، وأساله تعالى أن يوفقنا لكل ما يرضى به وأن يبعدنا عن كل ما يبعدنا عنه إنه سميع مجيب.

ضيافته فأبى عليه وقال:

نحن في ضيافة ملك الملوك جل جلاله، وحدثنا رضي الله عنه حينما وقف أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً وكان من خطابه له قوله: السلام عليك يا ولي نعمتي لأن شيخنا كان يعتقد أن كل ما كان فيه هو من بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يشهد أن محبته له صلى الله عليه وسلم أكثر بكثير من محبته هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان يوم رجوعه لحلب يوماً مشهوداً خرجت المدينة بكثرة هائلة للقائه والحمد لله رب العالمين.

٢٨ ـ من كلامه رضي الله الله عنه

كان يقول لي:

(يا بني، عليك بالشريعة فإنها تحفظك وتحفظ منك)

وصدق رضي الله عنه فقد وجدت أثر ذلك والحمد لله رب العالمين، فمتبع الشريعة في حصن حصين، وأمان مكين، ولا يزيده الله عنده إلا توفيقاً وحفظاً، وعند الناس رفعة وقبولاً.

وقال: القاعدة عند أهل السير إلى الله: اجتماع فاستماع فاتباع.

قلت:

وذلك أن مريد الهداية يجتمع أولاً ويستمع للتوجيه، وإذا أراد الله به خيراً فإنه يتبع، ويكون الأثر بعد الاتباع «فاتبعوني يحببكم الله». ومن كلامه رضي الله عنه وكان يكرر هذه الكلمة:

(ما ملأ رأسي ولا قلبي ولا كياني غير رسول الله صلى الله عليه

وسلم).

قلت:

هذا كلام صحيح من جميع الوجوه، إذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الأولين والآخرين في كل شيء، وشيخنا رحمه الله تعالى - كان يحب معالي الأمور، فينظر في الرجال، وأين الرجال مهما عظموا من رسول الله صلى الله وسلم؟

يقول الإمام مالك رضي الله عنه حينما وقف أمام قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منا إلا من رَد ورُد عليه إلا صاحب هذا القبر الشريف).

وقلت له مرة: كلمتك هذه من جوامع الكلم.

فان شيخنا رحمه الله تعالى حينما كنا نذكر الرجال ما كان يعطي إعجابه الكلي لسوىٰ الصّديق رضي الله عنه، وكان رضي الله عنه يعجبه الابتلاء ويقول:

(بقدر الامتحان يكون الامتكان) أي التمكن في المقامات، حتى أنه في أخر حياته وقد أخذه الابتلاء من كل جوانبه سمعته يقول: ولم أكتف بهذا الابتلاء)، ومرة أخرى بكى وقال:

فليطحن عظامي، فليذهب لحمي، ليذريه مع الرياح. أنا أحبه وأنا راضٍ، وقد يقول: ومن أنا حتى أرضى.

قلت:

طلبه رضي الله عنه للابتلاء من شدة صدقه مع الله تعالى، وهذا دأب

المحبين، وكلما صدق المحب تلذذ بابتلاء محبوبه، كما ورد في الحديث القدسي (بعيني ما يتحمله فتحملون من أجلي).

وقال ابن الفارض رضي الله عنه:

تلافَ ما بقي منك قلت ما * أراني إلا للتلاف تلفي.

وقال أيضاً:

تلذلي الآلام إذ أنت مسقمي * وإن تمتحني فهي عندي صنائع

ونحن نحافظ على الأدب مع أهل الله رضي الله عنهم، فكل منهم يصدر عن مقامه الذي هو فيه. وقد قال سيدنا الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه حينما تكلم على مقامات أهل الله، ولما وصل إلى ذكر الأنبياء والرسل قال:

ليس لنا أن نتكلم في مقامهم، لأننا ما وصلنا إلى مقاماتهم.

ولعلم شيخنا أعلى الله مقامه ما للابتلاء من آثار في الصدق والعطاء كان يحن له، لأنه لا يظهر صدق الصادق مثل الابتلاء، ومن ثم رأينا أن جميع الأنبياء والرسل ابتلوا أعظم الابتلاء كما تشهد بذلك الآيات القرآنية، وابتلاؤهم على قدر قربهم، يقول عليه الصلاة والسلام:

(أشدكم بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل).

ويقول الله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم: «ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» ويقول:

«ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» ويقول تعالى: «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا».

والصبر يصحبه ألم ومشقة، ويخفف ذلك ملاحظة أن الله ما ابتلاه إلا لحكمة تعود عليه بالخير «إن ربك حكيم عليم»، ومن شأن المحب الصادق نزاهته في الحب، وهذه النزاهة تعطيه الثبات على المحبة، يقول قائلهم:

تزول الجبال الراسيات وإنني * على العهد لا ألوي ولا أتغير

وقد سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة: يا رسول الله إن رأيت ليلة القدر ما أدعو بها؟ قال:

سلي الله العفو والعافية، فما دعي الله بشيء أحب إليه من سؤال العفو والعافية.

وإننا نقول: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو، نسألك اللهم العفو والعافية، ورضي الله عن المحبين الصادقين فشأنهم شأن آخر، وحالهم يسلم لهم. وكان رضي الله عنه يقول:

(لا يحكم على إنسان إلا الصادق).

وكان رضي الله عنه يذكر كيف كان يهيمن على مجلس شيخه بالصدق، فالصادق له جاذبية خاصة، وكان كثيراً ما يذكر سيدنا علي رضي الله عنه وهو يضرب على صدره بكفه ويقول:

آه.. إن ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة، ويشير بذلك إلى أنه يحمل أسراراً ويتمنى أن يرى من يحملها.

كنت مع شيخي مرة - رضي الله عنه - بين المغرب والعشاء، وليس بيننا ثالث، وهو مستلق على فراشه، وسألته عن الفناء والبقاء وكنت

أفهم أن الفناء معناه: غيبة السالك عن كل ما حوله كالمغمى عليه، فقال رضي الله عنه:

(لعلك في الفناء ولا تشعر) ففتح لي بكلمته هذه فهماً جديداً في الفناء وذلك أنه لا يشترط فيه الغيبة الحسية، ولكن المراد منه الوجهة الكلية إلى المطلوب، والاستغراق فيه، وكانت كلمته كالدواء على الجرح.

قلت له مرة بعد أن ألقيت الدرس للاخوان في جامعه: إنني أجد في كلامي فهماً جديداً لم أره في كتاب، قال:

يا بني إنك أوتيت فتح العبارة، تمم الله علينا جميع أنواع الفتح آمين. واستأذنته رضي الله عنه في ترك درس النساء الذي أمرني به أمراً قبل وفاته بأقل من سنة، قال لي:

يا ولدي اترك درس الرجال إن احتجت، ولا تترك درس النساء سواء في المدرسة أم في الجامع فتخوفت من ذلك فقال لي:

أنت مأمور، والمأمور محفوظ باذن الله، وهذا كلامه بالمعنى رضي الله عنه.

وكلامه قدس الله روحه ـ كثير وكله نافع، أتمنى لويتاح لي أن أجمع الكثير الكثير من كلماته النافعة الشافية والله من وراء القصد لكل متكلم.

٢٩ ـ لقاؤه مع الرجال: الهاشمي وغيره

حدثنا رضي الله عنه قال:

حينما ذهبت إلى مصر لإتمام الدراسة الشرعية، وكان قد أخذ الطريق وسار في الذكر والحب سيراً حسناً، قال:

كنت أسأل عن أهل القلوب لأزورهم، فسمعت عن الشيخ أمين البغدادي وهذا غير مؤلف كتاب تنوير القلوب ـ قال: فذهبت إلى جامعه، وإذا بكبار الناس يقفون على بابه بأدب جم، قال: فاستأذنت ودخلت عليه، وحينما رأيته التقت روحي معه وكأني أعرفه من زمن بعيد.

قلت:

وهكذا الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، قال: ولما جلست بين يديه وكنت موهاً قد اشتعل الحب في قلبي ـ

قلت له:

متى نخرج من هذه الدنيا لنلقى حبيبنا، قال: فنظر إلي الشيخ مبتسماً وقال: يا ولدي أي دنيا؟ الدنيا لأهلها ونحن معه هنا وهناك قال شيخنا: فوالله لقد فتح بكلمته هذه أبواب الفهم في قلبي، وسرت شوطاً بعيداً بإشارته.

قال شيخنا: وكنت أزور المقابر والصالحين يوم الجمعة، فأدخل بعض المساجد الخربة وآنس بها، فيقول لي بعض رفاقي: ماذا تجد من الأنس؟

قلت: وغاب عن هؤلاء هذا بأن قلوب الأولياء لها عيون ترى مالا

يراه الناظرون.

ومن اجتمع بهم: الشيخ محمد الهاشمي شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق، وأعطاه الطريقة الشاذلية، فجلس شيخنا مقدار نصف ساعة وقرأ وردها ففتح الله عليه فيه بما قاله عنه شيخه الشيخ محمد الهاشمي: لي ثلاثون سنة في الطريق، وقد فتح على الشيخ محمد النبهان في ساعة مالم يفتح علي في ثلاثين سنة.

وكم ألح الهاشمي رحمه الله ـ ليجعله خليفة له في حلب، ولكن شيخنا أبى ذلك، فقد كان كما قدمت عنه يريد تسيير المريدين بالمحبة لا بالسير المعهود.

ومن اجتمع بهم: (شيخ الطريقة الادريسية)، وجلس معه يتحدث عن سيدي محمد بن إدريس، فقال له شيخنا أكرمه الله:

يا أخي الذي يطلبه سيدي محمد بن ادريس أنا طالبه، فهل عندك شيء تتكلم به، وإلا فدعنا من الحديث عن الغير.

قلت:

يشبه هذا رضي الله عنه قول أبي يزيد حينما يتحدث عنده إنسان عن الجنيد فيقول: دعنا من القديم فهل عندك جديد، يريد الفتح على أهل القلوب الحاضرة من أهل الله تعالى، لأن مواهب الله تعالى متجددة على عباده، فالولي إذا انتقل إلى عالم الآخره لابد وأن يجعل الله بدله غيره ليحمل أسرار الله تعالى.

وكان شيخنا يقول:

إن الولي لا تنتقل روحه إلى ربه، إلا ويجعل الله تعالى سرّ وراثته في

عبد آخر لتبقى ولاية الله بين الناس، وببركتها يحفظ الله العالم.

وممن اجتمع بشيخنا في المدينة المنورة، أبو الحسن الندوي، العالم الهندي الشهير، وزرنا منزله في المدينة المنورة مع شيخنا قدس الله روحه ـ وكان في منزله بركة مهملة، فبدأ شيخنا ينظفها ليجري الماء فيها، فقال أبو الحسن: يقولون الصوفية لا يعملون، ولم يعرفوا من هم الصوفية! وجرى الحديث بيننا حول العمل واتقانه.

قلت:

وكان مبدأ شيخنا ـ قدس الله روحه ـ إتقان العمل، وقد كان دائماً يردد الحديث (إن الله يحب المتقن عمله).

لذلك كان إتقان العمل دنيوياً أو أخروياً شأنه وديدنه، لا يرضى إلا باتقان العمل على أعلى المستويات، وهذا ما جعله يخترق الحجب في سيره إلى الله تعالى، فذكره متقن، وحبه متقن، ومسجده متقن ومدرسته متقنة وهكذا.

فاللهم ارزقنا اتباعه في إتقان عملنا إنك سميع مجيب.

وممن اجتمع بهم: الفيلسوف المسلم المغربي: مالك بن نبي رحمه الله، زار الشيخ في جامعه وتحدث الشيخ أمامه فظهر عليه الذهول وقال للشيخ: ذكرتني نفسي وقد نسيتها.

قلت:

الفلسفة الحقة مدارها الفكر والعقل، فإذا اجتمع فيلسوف حقيقي بصاحب قلب منور فإنه يدرك نوره بالانعكاس كما ترى الشمس على

وكانوا جلهم يجلونه ويحترمونه.

كما استفاد من شيخنا رحمه الله تعالى ـ الشيخ عبدالعزيز البدري الذي قضى نحبه في إظهار الحق والدعوة الى التمسك بدين الله تعالى، رحمه الله تعالى وأبدله شبابه في الجنة مع أحبابه الذين أحبهم في الله ولله ومنهم بل وعلى رأسهم شيخنا رحمه الله ورفع قدره عنده، ولا ينبغي لنا أن ننسى أخانا الشيخ عبدالستار الكبيسي، والشيخ عبدالجليل والشيخ عبدالعزيز السامرائي، (وكلهم من خيار إخواننا في العراق ويانعم الإخوان في الله تعالى) ـ رحم الله منهم من توفاه، وحفظ من بقي وعمنا جميعاً برحمته آمين.

وحينما زرنا دمشق الزيارة الأولى معه، جاء للسلام عليه أعاظم رجال الدعوة، كما أن السادة أهل العلم جاء جلهم وخصوصاً أكابرهم للسلام عليه كالشيخ حسن حبنكة الميداني، والسيد مكي الكتاني رحمه الله، والشيخ أحمد كفتارو، والشيخ أحمد الدقر، حتى إننا مرة لم نتمكن من الغداء إلى ما بعد المغرب لاتصال الناس بعضهم ببعض.

وزار شيخنا بعضهم بدعوة أو بغيرها، ومنهم الشيخ أحمد الحارون الولي الشهير رحمه الله ورضي عنه، وكان معه في سفره هذا نخبة من إخواننا منهم من انتقل إلى رحمة الله، ومنهم من هو باق على قيد الحياة، وما أجمل السفر في صحبة الشيخ إذا كان الإخوان متّحابين متصاحبين فيارب زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولاتهنا، وأعطنا ولا تحرمنا يا رب العالمين.

حائط مقابل لمطارح ضيائها.

هذا بالنسبة للفيلسوف المروض صاحب الحكمة، لأنه من المعلوم أن كلمة فيلسوف معناها بالعربية: محب الحكمة، والحكمة: هي الكلام النافع كما قال تعالى: «ولقد آتينا لقمان الحكمة»، ثم ذكر تعالى من حكمه ونصائحه مافيه شفاء للأمراض الاعتقادية والخلقية والاجتماعية.

أما الذين يقرؤون الفلسفة كفن علمي، وتتفلسف ألسنتهم وقلوبهم خراب فليس هؤلاء فلاسفة، كالمسلم إذا لم يتخلق بالإسلام، والعالم إذا لم يعمل بالعلم، وابن الطريق إذا كان جاهلاً بالطريق السوي.

والخلاصة أن شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ كان سيد مجلسه حيثما جلس على شتى الطبقات: وذلك لما منحه الله تعالى من فهم منبعث عن المعرفة وورع ناشىء عن التقوى الحقة.

وقد جاء إلى حلب الشيخ قاسم القيسي مفتي بغداد، الذي قال عن نفسه أنه قل أن يوجد عالم جمع من العلم ما جمعه، اجتمع مع شيخنا أولاً كزائر فأحبه، ولما ذهب إلى العراق كاتبه فلم يرد عليه شيخنا جواب كتابه لأمر يريده من الخير للشيخ قاسم. فعتب عليه الشيخ قاسم ـ رحمه الله ـ وكتب إليه كتاباً يعاتبه على عدم رده الجواب، وقبل إرساله الرسالة رأى في المنام سيدنا الخضر عليه السلام، وأراد السلام عليه فلم يقبله الخضر، ولما استيقظ بعث إلى أخينا الشيخ محمود الكبيسي فأخبره بذلك ورجع عن كتابه، ثم زار حلب ثانياً واجتمع بالشيخ كمريد، فتأدب ونال خيراً هكذا حكى عن نفسه، وهكذا نقل لنا هذا الشيخ محمود حفظه الله كما اجتمع في بغداد بالشيخ العالم الكبير الشيخ أمجد الزهاوي رحمه الله. واجتمع بخطيب مقام سيدنا أبي حنيفة وغيرهم من العلماء،

٣٠ ـ رحـــلاتـه

كما كان قدس الله روحه أنيس الجليس في بلده، وكانت حلب تزهوبه ويـمـلـؤهـا الأنس والخير، فـلا يزورها زائر إلا كـان هو أول المزورين، لذلك كنت ترى جـامع الكلتـاوية وبالأحرى جامع الشيخ النبهاني ملتقى المؤمنين، وملتـقى العلماء، ومجمع المقبلين على الله، وإذا قدر الله وسافر الشيخ يبدو الجامع يتيماً، وكأن الذين فيه والذين يؤمونه ـ مع سفر الشيخ كأنهم عطاش لم ينهلوا من مـائه المعين الصـافي، وكأن الذين يسافرون مع الشـيخ في أعظم غـبطة ينالونها، كـيف لا . . وقـد فازوا بصحبة شيخهم العظيم.

لكم الله يا من كـانت قلوبكم تلتـاع على فـراقـه . . ولتـهنؤوا يارفـاق البدر المنير.

صـحـبناه إلى الديار الحـجـازية، وإلى العراق، وإلى تركيا، وإلى لبنان وإلى دمـشق، وكنا مـعـه كثيراً في القرى التي كان فيها (الجابرية) فيا نعم الموئل والمرجع، ويالله مـا أسـعـد سـاعـات نجلس فـيـهـا معه في صفاء أوقات.

وكـان رضي الله عنه إذا جلس إليـه إخـوانه حـيـثما كان يملؤهم بنور مذاكرته، ويأخذهم من نفوسهم فيرقى بهم في معارج الهمم العالية، وفي مـدارج الخيرات الزاهيـات، ويقلبـهم في حـديثه يميناً وشمالاً وكأنهم قد جلسـوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع أصحابه، حتى وكأنهم في رياض القدس بين يدي القدوس سبحانه.

لله دره، قـد زان مجلسـه أدب جم، وحـيـاء ملؤه البـهـجـة والسرور

والسعادة والحبور.

وما كان أدب إخوانه أدباً مصطنعاً فيه تكلف أو تملق، لا.. لا إنما هو الأدب المنبعث عن الحب والاعتقاد والإجلال وكنت أشعر من جلسائه الزهد بما لديهم من تجارة وأعمال وأشغال تجاه جلوسهم بين يديه، بل يشعرون بأن مجالسته ألذ من نعيم الدنيا وشهواتها وأرباحهم وتجاراتهم، وهذا الذي رأيت وشهدت وذقت، ويشهد ذلك كل أصحاب الشيخ وأحباؤه وجلساؤه، والله على ذلك شهيد.

وكان ذلك من الإخوان وغيرهم في محبة مجالسه لأن شخصيته قدس الله روحه كانت جاذبيتها قوية حتى يشعر جليسه كأن روحه في روضة دمشق ولديه منظر أخّاذ جذاب فلا إله إلا الله كم للروحانية من تأثير وكم للنور من أثر فياض رحمك الله سيدي ورضي عنك وعوض المسلمين خيراً آمين.

٣١ ـ ابتلاؤه آخر عمره

قلت فيما سبق إن شيخنا رضي الله عنه كان يعجبه الابتلاء وكان يقول: هو جسر الصادقين. وحكى لنا مرة قال:

اجتمعت بالشيخ ياسين الموقت وهو من أولياء الله، فقلت له: أنا أحب اسمين من الأسماء الإلهية وغيري يأباهما، وهي: المبتلي والمنتقم، قال: فبكى الشيخ ياسين وقال: يا شيخ محمد أنا أخاف من الابتلاء.

وقد ابتلي شيخنا رحمه الله في بدايته ونهايته ووسطه، وفي النهاية تكاثر عليه الابتلاء فلاحقه المرض مدة سنتين فكان مرضاً مرهقاً ولكنه رضي الله عنه من شدة ثقته بربه وعظيم التجائه إليه كان يظهر وكأنه ليس عنده خبر من ذلك. وكان في بعض الأوقات أدباً مع الحضرة الإلهية يظهر تذلله بين يدي ربه قائلاً: (رب ليس لي سواك افعل بي ما تشاء إني أحبك وأحبك وأحبك)، ثم يتضرع باكياً إلى الله تعالى بخشوع وتذلل حتى كانت النهاية التي يتمناها بلقائه مع مولاه، وانتقاله إلى دار الكرامة إن شاء الله، ولكنه ترك وراءه تركة ثقيلة، فلقد يتم وأثقل الكثير ممن كان لهم أباً ومعيلاً وملاذاً، وقد سمعته يقول مرة:

وسيظهر بعدي ما أكرمني الله به من الخدمة للأرامل واليتامى وقد ظهر هذا فعلاً.

فسلام الله عليك يا نعم الراحم للمساكين،

وأكرم بجبار خاطر اليتامى والأرامل والعاجزين،

وأنعم بمن يستدين ليقضي حاجات الناس ويفرج كرباتهم.

٣٢ ـ انتقاله إلى جوار ربه

في السادس من شعبان من سنة ١٣٩٣هـ، رجع العبد الصالح إلى ربه راضياً مرضياً إن شاء الله، فأكرم به ألف مرة من عبد كريم جاء لهذه الحياة فملأ جوانب حياته بالحب لربه تعالى. والاتباع الكامل لنبيه صلى الله عليه وسلم والخدمات الجلّية لبني الإنسان وبخاصة أحباب الله.

أكرم بعبد جاء لهذه الحياة لم يتدنس قط بما يحط من قدر الرجال في شرفهم ومروؤتهم وما يشينهم في رجولتهم ودينهم.

يجلس في مجلسه حيثما كان فيكون صدراً حقاً، صدراً سيداً هيبة وجمالاً ونوراً وكمالاً.

هَشٌ.. بَشٌ.. آلفٌ. مألوفٌ

يا رعى الله ذلك الإطراق ما أجمله

يا رعى الله ذلك الأغماض ما أعطفه

يا رعى الله ذلك البكاء ما أحره وما أصدقه

في كنف الله سيدي، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ولنكن على بالك يا مولاي.